مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

صفر 1437 هـ - نوفمبر 2016م

• «أرض كافكا»
• منيشا سيتهي

• «إله واحد وأرباب متفرّقون»
• جان آسمان

• «اقتصاد الصالح العام»
• جان تيرول

• «الكنيسة في العراق»
• فرناندو فيلوني

• «المغامرة الغربية»
• بول كلافال

• « الأخلاق في العالم الواقعي»
• بيتر سينجر

• «ثقافة النمو»
• جويل موكر

• «انحناء أمام المرايا»
• مارتين ر. دين

• «المحتوى المتعدد»
• إد يونغ

• «تدخلات محفوفة بالمخاطر»
• هارديب سينغ بوري

• «تشريح الهندسة المعمارية»
• سيرغي كافتارادزي

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من المصادر الأجنبية المُهمة لعُمان كتاب «سفارة إلى الدول الشرقية: إندونيسيا، وسيام، ومسقط»، للدبلوماسي ورجل الأعمال الأمريكي إدموند روبرتس. وهو يوميات بعثة دبلوماسية قام بها روبرتس سنة ١٨٣٢، بصفته ممثلاً خاصاً للحكومة الأمريكية، ضمن وفد دبلوماسي ليتفاوض في اتفاقيات تجارة وتفاهم مع كل من زنجبار، ومسقط، وسيام، وإندونيسيا. وقد استغرقت الرحلة ثلاث سنوات، توقف خلالها في مسقط سنة ١٨٣٣.

يصف روبرتس موقع مدينة مسقط، ويقول إنّها تقع في وسط الميناء، على المستوى الوحيد من الأرض الذي يُمكن أن يرى من المنطقة بين سلسلة عالية من الصخور في الجزء الجنوبي الغربي. وهي محاطة بسور، عدا الجزء الذي يواجه الميناء، ولها أبراج مُستديرة على الزوايا الرئيسية. ويذكر أنّه يقطن داخل أسوارها حوالي اثني عشر ألف نسمة، ويؤكد بأنّ الجزء الأكبر من السكان هم من العرب، أما البقية فهم من مُختلف الأجناس؛ من الهندوس، والفرس، والسند، والأحباش، والعبيد الزنوج من ساحل زنجبار، و«الكل يُقيمون في أمن تحت ظل حكومة مُعتدلة عادلة لأمير جدير بالتقدير».

ويتحدَّث روبرتس عن المهن في مسقط، ويقول إنّه يُمكن أن تَرى في المدينة نساجين ينسجون بعض الأقمشة الجميلة، بأطراف حمراء وصفراء من الحرير، التي تكون العمامة، يلبسها، عموماً، كل العُمانيين، سواء السلطان أو الرعايا من الشعب. ويقول: «يحفر النساجون حفرة في الأرض لأقدامهم، ويكونون مقعداً بارتفاع خطوة إلى أعلى، ليجلسوا عليه، وهم يستخدمون نَوْلاً بدائياً جداً، ويمدون الشبكة فوق الأرض بنحو بوصات قليلة، ويستخدمون ظلاً من سعف النخيل لحمايتهم من أشعة الشمس». ويضيف بأنّه يوجد قليل من صُناع الفضة والنحاس والحبال والنجارين وصناع الأحذية، وهذه هي، في الغالب، السلع الرائجة في تجارة مسقط إلى حد ما. كما أنَّ حرفة ميكانيكا الآلات تُمارس في الشوارع، تحت ظلال مفتوحة. ومنفاخ الحدادين مصنوع بطريقة بدائية جداً، وهو عبارة عن قربتين صممتا بطريقة بحيث إذا امتلأت إحداهما بالهواء ينفخ بالأخرى بيد موضوعة على كل منهما، وهكذا بالتناوب تضغط وتفرغ القربتان. وتستخدم حفرة في الأرض لوضع النَّار، وحفرة أخرى لوضع الماء، ويستخدم حجر للسندان، وبمطرقة غير متقنة الصنع، وهم يجلسون على ركبهم يمارسون صنعتهم ببطء. أما الحلاقون الهنود، كما يؤكد روبرتس، فيقومون بعملهم عموماً في الشوارع. وبعد حلاقة الشعر يقومون باستخلاص كل شعرة في الوجه حول الأنف والأذن، ويشذبون الشارب واللحية، ويقلمون الأظافر.

ويتحدَّث روبرتس عن التسامح الديني في مسقط، ويؤكد بأنَّ «كل الديانات في مناطق نفوذ السلطان، يُعامل أتباعها بتسامح شديد، وليس هذا فحسب، بل تقدم لهم الحماية الكافية بأمر من السُّلطان، ولا توجد أية عقبات تمنع النصارى واليهود أو غيرهم من مُمارسة شعائرهم الدينية، أو بناء معابدهم». ويقول إنَّ الجزء الأكبر من أتباع السلطان هم على المذهب الإباضي، «وهم يمتنعون عن تعاطي التَبغ والخمر، ومن أيّ نوع من أنواع الأبهة والتفاخر في ملبسهم وفي منازلهم وفي مساجدهم».

hilalalhajri@hotmail.com

«أرض كافكا».. لمانيشا سيتهي

فيلا بوراتو عبدالكبير*

«أرض كافكا» (Kafka Land) لمانيشا سيتهي، كتابٌ مُهم وثائقي لمن يريد أن يدرس ما يجري وراء الكواليس الأمنية في الهند تحت عنوان مكافحة الإرهاب.. مانيشا الأستاذة في الجامعة الملية الإسلامية بنيودلهي ليست مجرد كاتبة، بل هي حضور بهي وقوي في مجال حقوق الإنسان، خاصة فيما يتعلق بقضايا الأقلية المسلمة. ومن قرأ رواية كافكا «المحاكمة» التي تعدُّ من أبرز الأعمال في المدرسة العبثية، يجد أنَّ تسمية مانيشا حاضر الهند بـ «أرض كافكا» تسمية مُناسبة جدًّا؛ حيث العبثية في تلك الرواية تنطبق تماما على المشهد الهندي الراهن الذي تظهر فيه ملامح إرهاب الدولة بصورة فاحشة، تُخاصم العقل والمنطق، وتتحدى كل ما هو معقول. تبدأ رواية «المحاكمة» بأن يتم اعتقال بطل الرواية «جوزيف.ك» أمين الصندوق الرئيسي في أحد المصارف، في حفلة عيد ميلاده الثلاثين، من قبل رجلين مجهولين، بناء على تعليمات جهة غير مرئية. و«ك» رجل ساذج بريء تصيدته الشرطة وجعلت منه مجرما كبيرا، فيضطر إلى أن يتعرض لاستجواب خشن في المحكمة طوال حياته، بالرغم من عدم ارتكابه لأي جريمة. ترى منيشا في أكثر من يقضي في سجون الهند من المسلمين المتهمين بالإرهاب صورة «ك» المسكين.

كتاب «أرض كافكا» رحلة مغامرة طويلة تتابع فيها الكاتبة حالة تلو حالة من الانفجارات التي حدثت في مختلف أنحاء الهند منذ ٢٠٠٥، وتحاول تحليلها بكل دقة وأمانة، فتكشف عن المؤامرة الكبيرة التي يقوم بها الهندوس المتطرفون بالتواطؤ مع العناصر المتعاطفة معهم في قوات الأمن الهندية. بدلا من أن تعتمد على تقارير الشرطة الأولية أو تصريحاتهم التي أدلوا بها للصحافة، تجمع الوثائق البوليسية الأخرى وإفادات الشهود وأحكام المحاكم وتقارير لجان التحقيقات والمعلومات التي حصلت عليها بموجب قانون حق الحصول على المعلومات الرسمية، فتغوص إلى أعماقها ثم تقوم بتجريد تناقضات هذه المعلومات وطبيعتها العبثية. الكتاب قُسم إلى جزأين: جزء تحت عنوان «حكايات من أرض كافكا» بأربعة فصول تُعري الحقائق المخفية في الحوادث المتعلقة بالانفجارات والاعتقالات التي تختلف عما وردت في وسائل الإعلام في حينها، وكذلك مختلف أنواع التعذيبات التي تمارسها الجهات الأمنية على المتهمين. التعذيبات الوحشية التي تعرض لها المعتقلون ظهرت لأول مرة في رسائلهم المتوفرة لدى محاميهم شاهد أعظم، ورد في هذه الرسائل اسم طبيبة تسمى «ماليني» المديرة المساعدة في معهد التحليل النفساني الخدري (Narco Analysis Instiute) بـ«بنجلور». القصد بهذا التحليل هو التأكد من صحة إفادات المتهمين، وهو عبارة عن مساءلة المتهمين بجعلهم في حالة ذهول بفعل عقار مخدر. والرسائل المذكورة كانت تفيد بأن الطبيبة «ماليني» المشهورة بسمعتها السيئة باسم «الدكتورة ناركو» كانت تستخدم الأدوية الممنوعة مثل «سوديوم بينتاتول» بحقنها عدة مرات في أجساد المتهمين لنزع اعترافاتهم بارتكاب الجريمة. كانت هذه الأدوية تسبب أمراضا خطيرة ونوبات قلبية. ولما أعلن المحامي شاهد أعظمَ هذه الرسائل أثارت ضجة كبيرة في وسائل الإعلام واتضح فيما بعد أن الأقراص المغنطة المحتوية على إفادات المتهمين كانت جلها مزورة؛ مما أدى إلى عزل الطبيبة «ماليني» من المعهد المذكور بصورة مهينة. فسرعان ما اغتيل المحامي شاهد بأيدٍ متطرفة هندوسية. المحامي شاهد هو ذاته كان ضحية الجهات الأمنية بتهمة الإرهاب؛ حيث اضطر إلى أن يقضي فترة في السجن. وخلال هذه الفترة، درس القانون وحصل على درجة بكالوريوس في الحقوق. وبعد خروجه من السجن بإثبات براءته امتهن المحاماة. منذ ذلك الحين، نذر حياته لمساعدة المتهمين الأبرياء بمرافعة قضاياهم إلى المحاكم العدلية. وقد أنقذ حياة كثير منهم إلى بر الأمان مما جعله شوكة في حلق العناصر الفاشية الهندوسية ودفعهم إلى قتله. حين نقرأ في الكتاب الأنواع المختلفة من التعذيبات التي تقوم بها قوات الأمن للضغط على المتهمين للاعتراف بالجريمة ستقشعر جلودنا.

ودراسة «مانيشا» التحليلية عن إرهاب الدولة لا تنحصر في القضايا المتعلة بالأقلية المسلمة فقط، بل تتجاوزها إلى الماضي البعيد، مما واجهت فيه الأقلية السيخية في ولاية «البانجاب» من إجراءات قمعية بقيادة قائد الشرطة آنذك «ك.ب.س. دهيلان» في دور حكومة أنديرا الغاندي، تحكي فيه المؤلفة مغامرة المنضال الجريء «جاسفاند سينج» أحد نشطاء حقوق الإنسان الذي بذل جهدا كبيرا في البحث عن عدد المختطفين من قبل الشرطة لقتلهم ودفنهم جماعيا، فيذهب إلى المقابر العامة ويفحص السجلات الرسمية ليتأكد من عدد الأخشاب التي استعملت لحرق أجسادهم حتى يتم الضبط من خلاله عدد المقتولين. وأخيرا اضطر هذا المناضل إلى أن يعطي ثمنا بالغا لعمله، فما كان قدره إلا أن اغتيل بأياد سوداء.

وفي الكتاب أيضا دراسة مفصلة عن الأرباح التي تكتسبها الشركات الضخمة متعددة الجنسية من صناعة الأجهزة الأمنية التي تُباع للحكومات باسم مكافحة الإرهاب، وكذلك الفساد الكبير الذي يجري خلف هذه الصفقات.

كانت حادثة «بيت بتلا» (Batla House) الذي كان يسكن فيه طالبان من جامعة الكاتبة هي التي دفعتها إلى بذل جهدها في تأليف هذه الدراسة العميقة. في تلك الحادثة، قُتل الطالبان المذكوران إثر هجوم قامت به شرطة دلهي سيئة السمعة في منتصف الليل. ادعت الشرطة أن الطالبين كانا من الإرهابيين وأنهما قُتلا بعد تبادل إطلاق النار عند مداهمة الشرطة سكنهما. لماذا هجمت الشرطة على سكنهما في منتصف الليل؟ إن كانت لدى الشرطة معلومات تفيد بأعمالهما الإرهابية، لمَ لم تقم بإلقاء القبض عليهما بالتعاون مع إدارة الجامعة؟ طرحت أسئلة كثيرة مثل هذه في ذلك الوقت من قبل كثير من منظمات حقوق الإنسان. وإضافة إلى هذا، كانت شهادة حسن سلوك وسيرة ذلكما الطالبين من مركز شرطة «أعظم جر» مسقط رأسيهما كانت موجودة لدى شرطة دلهي، إنما التحقا بالجامعة بموجب تلك الشهادة. والمزيد من ذلك اتضح فيما بعد من تقرير الطب الشرعي الخاص بالمقتولين أن حكاية الشرطة عن تبادل إطلاق النار مفبركة وعارية من الصحة. ولهذه الأسباب وأسباب أخرى كثيرة، طالبت منظمات حقوق الإنسان الوزارة الداخلية التابعة للحكومة المركزية بتعيين لجنة تحقيق لاكتشاف حقيقة تلك الحادثة، ولكن الحكومة رفضت ذلك الطلب مبررة أن تحقيقا مثل هذا سوف يسبب تدحرجا لمعنويات القوات الأمنية. وفي سياق هذا، قامت مجموعة من أساتذة الجامعة الملية وأكثرهم من خارج الملة الإسلامية بتشكيل منظمة باسم «تضامن أساتذة الجامعة» للدفاع عن حقوق ضحية إرهاب الدولة. والأستاذة مانيشا عضوة فعالة في هذه المنظمة. وجدير بالذكر هنا أنها في أكتوبر الماضي قامت بعقد اجتماع مع مجموعة كبيرة كانت متهمة بالتورط في انفجارات ثم تم إطلاق سراحهم من سجون مختلفة بعد ثبوت براءتهم في محاكم العدل.

وفي الجزء الثاني من الكتاب، تتناول المؤلفة موضوع القوانين الجائرة التي تسود البلاد والمشاكل المتأزمة التي تتعلق بهذه القوانين والتعديلات اللازم تنفيذها فيها فورا. بعد كارثة ١١/٩ انقلبت موازين العدل والإنصاف بصورة مرعبة. الحرب على الإرهاب التي أعلنها بوش الصغير -هولاكو القرن الواحد والعشرين- تحت قناع الحرب العادل، أنتجت آثارا بالغة الخطورة بحيث تضخم إرهاب الدولة على مستوى عالمي. عقب سقوط المركز التجاري العالمي في أمريكا عام ٢٠٠١ وبعد إبرام الحلف الدولي تحت إشراف الأمم المتحدة ضد الإرهاب، تشكلت قوانين سوداء سلطوية في كثير من البلدان مما جعل كلا منها دولة بوليسية بالرغم من وجود نظام ديموقراطي في الشكل. كانت من المبادئ المعترف بها في عالم القوانين الحضارية حتى عهد قريب أن المتهم يجب أن يُعتبر بريئا لحين أن يثبت مجرما، كما أنه يتم إطلاق سراحه على الضمان خلال محاكمته، وكان يعتبر هذا الضمان حق كل معتقل. أما تحت القوانين الجديدة لمكافحة الإرهاب، فقد انقلبت هذه المبادئ رأسا على عقب بأن يكون إثبات البراءة واجبا على المتهم في قضية الإرهاب، وأن يكون محروما من حق الحصول على الضمان طوال فترة محاكمته. وفي ظل هذا النظام السلطوي الوحشي، تستطيع أجهزة الحكومة بسط أيديها أي وقت إلى أي مواطن تكرهه، كما تستطيع الحكومة سوء استخدام سلطتها المفرطة على أي معارض سياسي يحول دون مصالحها الذاتية.

قانون مكافحة الأعمال غير الشرعية في الهند الذي يُعرف اختصارا باسم (Unlawful Activities Prevention Act)، نموذج جيد لهذه الحالة المأسوية. ومن اللافت أن هذه القوانين ليست ظاهرة جديدة برزت بعد تولي «التحالف الديمقراطي الوطني» بقيادة «حزب بهاراتييا جناتا» الهندوسي الفاشي، بل كانت موجودة حتى في عهد حكومة «اتحاد التحالف المترقي» برئاسة حزب المؤتمر العلماني العريق. ووفقا للإحصائيات، فإن الكثرة الغالبة من ضحية هذا القانون هم الأقلية المسلمة. وقد أوردت المؤلفة في أحد الفصول حالات عديدة تبينت براءة كثير من المتهمين إثر فشل الادعاء العام في إثبات تهمة الإرهاب الموجهة اليهم. الأدهى والأمر أنهم كثيرا ما يظلون مضطرين لقضاء فترة أطول من فترة العقوبة المحتملة خلف القضبان إن ثبتت تهمتهم، وذلك بسبب الحرمان من حق إطلاق سراحهم على الضمان خلال فترة المحاكمة. وجدير بالذكر أن هؤلاء الشباب هم من الشرائح المهنية من المهندسين والأطباء ومهرة تكنولوجيا المعلومات أو الطلبة الذين التحقوا بدورات مهنية في مثل هذه المهن؛ مما يدل على أن ما يجري تحت عنوان مكافحة الإرهاب خطة مدروسة تلعب

وراءها أياد خفية في أجهزة المخابرات والمباحث العامة في القوات الأمنية الهندية التي تتواطأ مع العناصر المتطرفة في منظمات تجتمع تحت مظلة الأسرة الهندوسية الفاشية الرئيسية لتدمير حياة الأقلية المسلمة التي بدأت تستنهض مؤخرا في مجالات الدراسة العليا، كما بدأت تحتل مناصب محترمة في سلم الوظائف في القطاع العام والخاص معا.

الاضطرابات الطائفية هي التي كانت تعتمد عليها المنظمات الهندوسية المتطرفة لمضايقة الأقلية المسلمة من قبل. ولما اشتدت موجات الكراهية ضد المسلمين على المستوى الدولي وخاصة في الولايات المتحدة، أتيح لهذه المنظمات فرصة سانحة فبدلوا خطتهم الخبيثة إلى القيام بالانفجارات في سرية تامة وإلقاء التهم على المسلمين. وجدوا أن فائدة الانفجارات أكثر بكثير من الاضطرابات؛ حيث يمكنهم من خلالها ضرب عصفورين بحجر واحد. فاختاروا مناطق المسلمين لتنفيذ خطتهم، ثم قاموا بالتواطئ مع العناصر المتعاطفة معهم في الشرطة بتوجيه التهم ضد المسلمين وإلقاء القبض عليهم. وهكذا حدثت الانفجارات في «الأجمير الشريف» وفي مسجد مكة بحيدرآباد وفي «ماليجاف» المنطقة المكتظة بالمسلمين بمومباي، وفي القطار السريع «سامجهوتا» المتوجه إلى باكستان. جل من قُتل في هذه الانفجارات كانوا مسلمين، مثل الانفجارات السابقة، في هذه الانفجارات أيضا اتهمت الشرطة الشبان المسلمين كما تم اعتقالهم فورا بدون إجراء تحقيقات دقيقة. ولكن كان في فريق التحقيقات ضباط كبار مثل «هيمناندا كاكارا» من ذوي الضمير والصدق والأمانة، وبما أنه كان رئيس الفريق اتخذ قرارا حاسما في أن يهتم ببسط التحقيق إلى جميع الجهات التي يمكن أن يكون لها دور في القيام بتلك الانفجارات. فانكشف لأول مرة في تاريخ التحقيقات أن وراء تلك الانفجارات شبكة متطرفة هندوسية بقيادة بعض الروحانيين منهم مثل الروحاني «اسيماناندا» والروحانية «براجنا سينج»، جُمعت لهم العبوات المتفجرة من مخزن الجيش ضابط برتبة عقيد اسمه «بوروهيت». ولم يتردد «كاركارا» بإلقاء القبض عليهم جميعا. وفي السجن التقى الروحاني «اسيماناندا» صدفة بشاب يهتم بتقديم خدمات له طوعا، فأعجبه حسن سلوك ذاك الشاب وسأله عن سبب وصوله السجن، وتبين أنه متهم في الانفجارات المذكورة أعلاه. وهذا الخبر وكز ضميره الراقد مما دفعه إلى تسجيل اعتراف جريمته أمام القاضي بالرغم من تنبيه القاضي بنتيجته الوخيمة. وبالطبع تم إطلاق سراح الشباب المسلمين المتهمين في تلك القضية. وقد خصصت المؤلفة فصلا لتفاصيل هذه الوقائع. وللأسف لم تسمح العناصر المتطرفة لذلك الضابط المخلص «هيماندا كاركارا» بأن يُوصل تلك القضية إلى نتيجتها الحتمية، فسرعان ما اغتيل في ظروف غامضة. وقد كُشف عمَّن شارك في اغتياله ضابط متقاعد من شرطة مومباي بأعلى رتبة اسمه «مشرف» في كتابه «من قتل كاركارا؟».

وفي آخر كل فصل اهتمت المؤلفة بدعم نتائج بحثها بمراجع موثوقة ووثائق معتمدة. يختتم الكتاب بأربعة ملحقات؛ الأول منها النصوص من الرسائل التي قام بتوفيرها المحامي «شهيد أعظم» من المتهمين. والملحق الثاني نص الرسالة التي أرسلها المتهم إرشاد علي من عنبر السجن المشدد أمنيا إلى رئيس وزراء الهند. والثالث منها الأجزاء المهمة من حكم محكمة «آندهرا برديش» في قضية رفعتها اللجنة المدنية للحرية بآندهرا براديش «ضد حكومة آندهرا براديش». الرابع والأخير منها بعض أجزاء من حكم «فيريندر بهات» قاضي محكمة دلهي في قضية مسعود وآخرين خلاف الحكومة.

الكتاب باختصار.. دراسة قيِّمة في موضوع الإرهاب ووجهه الآخر من الإرهاب المضاد.

- الكتاب: «أرض كافكا»
« Kafkaland: Prejudice, Law and Counterterrorism in India.».
- المؤلف: منيشا سيتهي.
- الناشر:
(Three Essays Collectives, B – 957 Palmvihar, Gurgaon,Haryana,India)- 2015.
- عدد الصفحات: ٢١٦ صفحة.

*** باحث ومستعرب هندي**

إله واحد وأرباب متفرّقون: التوحيد والتعدّد في مصر القديمة

عز الدين عناية *

لا تزال مسألة التوحيد في الديانة الأخناتونية (أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد) مثار تساؤلات عدة في أوساط مؤرخي الأديان، وذلك لخروجها عمّا هو مألوف في التقاليد الدينية المصرية القديمة المحكومة بالتّعدد والتجسيم في قضية الألوهية، ما جعل العديد من الدراسات الحديثة تسلّط الضوء مجددًا على هذه الديانة بقصد تفسير ذلك الحدث. وبهذا المفهوم تُعدّ الأخناتونية الموحّدة ديانة مُتفردة ضمن التقليد التّعددي للتراث الديني المصري، دفعت البعض إلى ربطها بالتراث الإبراهيمي وإن لم يفصح التراث الكتابي عن ذلك. كتاب المؤرخ جان آسمان المتخصص في علم المصريات هو من الأعمال الجديدة الصادرة في المجال. والمؤلف من المهتمّين بالحضارة المصرية القديمة وقد درّس في العديد من الجامعات الغربية، في هايدلبرغ وباريس وشيكاغو وهوستن، وصدرت له مجموعة من الأعمال في الشأن منها: «اللّه والأرباب: مصر وإسرائيل ونشأة التوحيد» (٢٠٠٩)؛ «التميز الموسوي أو ثمن التوحيد» (٢٠١١) «الدين الكلّي: أصول العنف الديني وطبيعته» (٢٠١٥).

يعالج الكتاب الذي نتولى عرضه مسألتين أساسيتين: الأصالة الجوهرية للتوحيد والبنية العقدية للتّعدد في مصر القديمة. مقدرا جان آسمان أن المرور من التعدد إلى التوحيد الذي هلّ مع الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، بعد رحلة طويلة في العالم القديم هو أحد التحولات المهمة التي جرت على غرار التحضّر وبناء الدولة وإبداع الكتابة. والبادئتان اللتان تسبقان المصطلحات الغربية (mono)و (poli)، والواردتان في مقدمتي اصطلاحي التوحيد (monotheisme) والتعدد (politheisme)، للتمييز بين الوحدة والكثرة، المفرد والجمع، لا تقدر كلتاهما، وبشكل كاف، على توصيف تلك الرحلة. إذ الجلي أن نصوص مصر القديمة الدينية تطفح بالثناء على «الواحد والأوحد»، لكن الأمر ما كان يعني تواجد إله واحد، بل الكل، أي الكون وما حواه من آلهة، هي جميعًا متأتية من إله أوحد، من أصلٍ ينبَع منه الكلّ ويخضع له الجميع.

وعلى العموم ينبني الحديث عن الواحد في أديان العالم القديم، كما يلاحظ جان آسمان، على معطيين مختلفين: من جانب نجد تلك التي ترفع شعار «لا إله إلاّ الواحد» ومن الجانب الآخر تلك التي تتبنى «كافة الآلهة هي واحد». ويمكن اعتبار الشكلين أحدهما يعبّر عن «الوحدانية المانعة» والآخر عن «الوحدانية الجامعة». وضمن نطاق الوحدانية المانعة يتمحور المعتقد القائل بأنّه «ثمة أرباب متفرقون، لكن بالنسبة إليّ، أو بالنسبة إلينا، أو بالنسبة إليكم لا يمكن أن يكون إلا واحدا!»؛ وقد أطلق آسمان على هذا النوع «توحيد الإخلاص»، وهو ما يشكّل من وجهة نظره المستجد البارز الذي أدخلته الديانة اليهودية في تاريخ الأديان، وما لم يحضر في مصادر مصر القديمة إلا في حالة طارئة وحيدة مع الأخناتونية.

ودائماً في نطاق مُعالجة مسألة الأصالة الجوهرية للتوحيد يتعرض آسمان إلى نظرية ويلهالم شميدت بشأن فكرة أصالة التوحيد الواردة في مؤلفه «منشأ فكرة الله»، الصادر سنة ١٩١٢. مقرًا آسمان بقدرة شميدت على الإحاطة التاريخية والثقافية بالموضوع وتوفيقه في موقعة الظواهر الدّينية ضمن سياقاتها التاريخية، أي ضمن نظرية الدوائر الثقافية وتداخلاتها. فمع شميدت ليست الآلهة المعبودة سوى انعكاس لواقع بشري محدد. إذ يذهب، من خلال اعتماد منهج صارم، إلى أنّ مختلف أصناف الدّين تتلاءم مع أطوار ثقافية، وفي كل طور ثقافي يسود المعتقد نفسه بإله جوهري، سواء لدى الأجناس الهندو-أوروبية أو لدى هنود أمريكا الشمالية وكاليفورنيا الوسطى أو لدى غيرهم من الشعوب. وتبعًا للتقصي الذي قام به شميدت حول منشأ فكرة الله، حدّد ثلاثة أسباب أساسية لذلك، تأتّت جميعها من معاينات إثنوغرافية: الحاجة إلى العلّية والكلّية والتشخيصية. وقد أكد شميدت ضمن ذلك السياق أن البدائيين أناس يتمتعون بتفكير منطقي وقادرون على إضفاء صبغة عملية على الأمور، وبوسعهم الإقرار بوجود إله أوحد. فهل يُمكن القول بوجود حضارة بدائية، خلال مرحلة الطفولة البشرية، هي منبع جامع لكل الأديان وكل الحضارات؟ ويلهالم شميدت يؤكد أنّ بإمكاننا القول إنّ التوحيد الإلهي متأصّل لدى الإنسان، ولم يتم إلا لاحقًا، بتشكّل علاقات مغايرة وظهور تعقدات معيشية، أن عرف التوحيد شيئاً من الطمس.

لكن ويلهالم شميدت، بوصفه رجل دين، كان مجبرًا على تقديم فكرة الوحي الإلهي كلازمة، وهو ما عارضه فيها كل من إدوارد بورنت تيلور وأندرو لانغ. وضمن هذا السياق تبدو نظرة شميدت متضمنة في الآن نفسه نفياً للدين الطبيعي الصرف، بالمعنى الذي تعنيه الأرواحية، وانحلالا متواصلا للدين منذ الحضارة الأصلية. ذلك أنّ التقدم المادي والتقني للبشرية قد صحبه تراجع جلي للفكرة الدّينية. والجلي مع طروحات شميدت أنّه يصعب القبول بالنتائج التي توصل إليها، وما يمكن أن يتبقى بالمحصلة من عمله، أن فكرة أصالة التوحيد ليست مجرد نتاج تطور تاريخي ولكنها تبدو حاضرة ومعيشة في عديد الأشكال الأساسية في الحياة الدّينية. وكل المسألة تتلخص في معرفة ما إذا كان التوحيد فطريًا أم هو مجرد فكرة تهيَّأ لعقل الإنسان المتأمل أن يصوغها من مجموع إدراكاته للمقدّس؟ وبهذا المعنى فإنّ فكرة الله تبدو ملازمة للإناسة الدّينية كما بالمثل للتاريخ البشري.

وفي السياق نفسه يستدعي آسمان المؤرخ الإيطالي رفائيلي بتّازوني الذي يعتبر ألا سبيل للحديث عن التوحيد بمعناه الصائب إلا بالانطلاق من التجربة التي تتيحها الأديان التوحيدية الحالية. فمن الثابت أنّ تلك الديانات قد نشأت عقب إصلاح ديني يُعارض التعدد السائد. ومن هذا الباب، فالتوحيد الذي يُعتبر نفياً للتعددية التي ثار ضدها ونازعها الدور باسم مطلب روحي أرقى، لا يُمكن أن يكون شكل الدين الأول كما يؤكد ذلك أنصار نظرية أصالة التوحيد. إذ ليس التوحيد الذي نجده لدى الشعوب غير المتحضرة توحيدا خالصاً، ولكن مجرد فكرة هلامية تفتقر إلى الصياغة في قالب مفهومي ضمن منظومة عقدية لكائن أعلى. ذلك أنّ التوحيد بالمعنى التاريخي للمصطلح ليس نتاج تطور ديني وإنما هو نتاج ثورة دينية.

وفي المحور الثاني من الكتاب، المعنون بالبنية العقدية للتوحيد في مصر القديمة، يتناول آسمان مظاهر الاتصال والانفصال بين الأخناتونية واليهودية. إذ الجلي في هذا السياق أنّ عالم النفس سيغموند

فرويد قد تناول المسألة من منظور تاريخي وسيكولوجي في كتابه «موسى والتوحيد». وافترض أن النبي موسى عليه السلام كان على علاقة وطيدة بأخناتون دينيا وسياسيا، حيث كان أحد قادته العسكريين. وبناء على هذا جرت محاولات لضبط نقاط الاختلاف والاتفاق بين الدينين، حتى قيل إنّ دين موسى اللاحق ليس سوى تقليد لدين أخناتون السابق. ولكن تتضح فروقات دقيقة بين الدينين لا يمكن حصرها إلا بالتمعن والتدقيق وإن كانت لا تخرج عن المشترك الجامع بين الديانات التوحيدية.

يضرب جان آسمان مثلاً على مشكلة المقارنة بين الأديان، فعلى سبيل المثال نصادف معتقد التوحيد لدى قبائل بدائية تشترك فيه مع ديانات راقية، ولكنّ هذا التوحيد الذي نجده عند بعض القبائل ليس بالمعنى العقدي الصرف المتعارف عليه في الديانات السماوية، وإنما هو توحيد قبلي ينبع من تفضيل أحد الآلهة على أخرى. وهو ما يُعرف بالواحدية (enotheisme)، أي واحد من جملة آخرين وليس الوحيد في معنى (monotheisme)، وهو ما امتازت به اليهودية والإسلام والمسيحية في مرحلة مُبكرة.

فالمعروف أنَّ مصر قد عرفت التوحيد الصارم، الفجئي والحازم، مع ارتقاء الفرعون أمنوحتب الرابع العرش سنة ١٣٧٥ ق.م. فعلى إثر تبنيه المعتقد الجديد تسمّى بأخناتون، وشنّ حملة شعواء على كافة مظاهر الديانة المصرية التعددية السائدة في ذلك العصر. أتى أخناتون بنقيض لها في العقائد والشرائع ولكنّ سلطانه لم يعمّر سوى سبع عشرة سنة فحسب. يذهب سيغموند فرويد في تفسيره للحدث إلى أنَّ الدولة المصرية التي كانت ترنو للعالمية كانت في حاجة إلى ديانة توحّد بين رعاياها وهو ما مثل حافزا للظهور الفجئي للديانة التوحيدية في مصر حيث «انعكست الإمبريالية في الديانة فصارت ديانة عالمية توحيدية» على حد قوله في كتاب «موسى والتوحيد» (ص: ٢٩). والجلي أنَّ بوادر نشأة التوحيد المصري تعود إلى زمن سابق عن عصر أخناتون، ففي مدرسة الكهنة في معبد الشمس في أون (هيلوبوليس) لاح نهج لاهوتي يسير نحو تطوير فكرة إله وحيد وعالمي في الوقت نفسه. ويذهب فرويد في شرح العامل السياسي المولد لهذا المعتقد قائلاً: «فما دام نفوذ الفرعون قد تجاوز الآن مصر إلى النوبة وسوريا فإن فكرة الألوهية كان عليها أن تتخلى عن تحدّدها القومي

وكان على إله المصريين الجديد أن يغدو كفرعون السيد الفريد غير المحدود، سيد العالم المعروف لدى المصريين» (ص: ٢٩).

ونلاحظ أنَّ هذه الأفكار التي يتعرض لها جان آسمان بشأن الديانة الأخناتونية والتي أخذ بها عالم النفس سيغموند قد لاقت صدى أيضاً لدى بعض الكتاب العرب فثريا منقوش في كتابها «التوحيد في تطوره التاريخي: التوحيد يمان» (ص: ١١٥). رأت أن القرن السادس عشر قبل الميلاد، الذي يمثّل بداية التوسعات العسكرية في تاريخ شعوب المنطقة، قد ساد فيه عمل دؤوب على مركزة السلطة السياسية وتجميعها، وهو ما تولد منه توحد للآلهة العديدة في إله واحد كوني ولكن الصراع المتواجد داخل الجهاز الديني أبطأ هذه العملية إلى القرنين التاليين حتى وجد الأمر معينا في الجهاز السياسي مع الفرعون أمنوحتب الثالث، أي أخناتون، الذي بدأ في إملاء سلطة الإله الواحد استجابة لمتطلبات مركزة السلط.

يتساءل جان آسمان عن الدواعي التي دفعت بفرويد للقول إن إله أخناتون ليس سوى الإله الموسوي. لقد تمثل أخناتون إلهه الوحيد في قرص الشمس، وكأن العقلية البشرية حتى ذلك العهد ما زالت لم تتخلص من تجسيم الإله وتشبيهه بعدُ، حيث إنّ الشمس التي عبدها الإنسان قديمًا لا تزال حاضرة في الوعي البشري كرمز للعطاء والخير رغم أن أخناتون كان يقول إن هذه الشمس هي بمثابة ظل الله في هذا الكون وليست هي الله، واختار لإلهه اسم الإله المعروف آتون الذي يرجع تأليهه إلى عصر تحتمس الرابع.

والمعروف عن هذا الإله أنّه كان يعيش في علاقة ودية مع غيره في مجمع الآلهة، ولكن بعد أن احتد الصراع بين كهنة المعبد صعد هذا الإله حتى اتّخذ المكانة المعروفة. ومما أوحى لفرويد أنّ الإله الأخناتوني قد تبناه موسى، التشابه في التسميات بين الإله العبري أدوناي والإله المصري آتون. حيث نجد فرويد في «موسى والتوحيد» يلحّ على أنَّ الكلمتين تنبعان من مصدر واحد. إذ يصرّ على ربط العبارتين، مرتئياً أنهما تتحدران من مصدر واحد عن طريق أدونيس الإله السامي المتواجد في شمالي سوريا وبابل. ولتقريب الأمر للأذهان يترجم الفاتحة العبرية «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد» (التثنية٦: ٤) بـ«اسمع يا إسرائيل إنه إلهنا آتون هو الإله الوحيد». ونجد من الكتاب العرب المهتمين بتاريخ الأديان من انتقد ذلك الخلط الذي وقع فيه فرويد. يقول سهيل ديب في كتابه «التوراة بين الوثنية والتوحيد» (ص: ٤٤): «إنّ تشابه تسمية الرب آتون لدى الفراعنة وآدون وآدوناي لدى العبرانيين ليست حجة كافية، ولو توقف عندها الكثير من العلماء المرموقين مثل فرويد وغيره، وكلمة آدون بالعبرية هي ما يُقابل كلمة السيد أو سيدي إلا أن فرويد يصرّ على الربط بين العبارتين بأن يجعلهما من مصدر واحد».

لقد قيل الكثير في ديانة أخناتون من حيث تفسير أصولها العقدية والتشريعية، لكن يبقى الشيء المتفق عليه بين مجمل الدارسين وهو أصالة التوحيد في هذه الديانة. ولعل الجدل الدائر بشأن أخناتون يجليه قوله تعالى: «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»، نظرًا للتماثل الكبير له مع تراث الديانات السماوية. فهناك اعتبارات عدة تدفع إلى إلحاق أخناتون بالعائلة التوحيدية، وهو الدور الذي ينبغي أن يتولاه تاريخ الأديان بعيداً عن النزعات المادية التي تتجاذبه.

الكتاب: إله واحد وأرباب متفرّقون.. التوحيد والتعدد في مصر القديمة.
تأليف: جان آسمان.
الناشر: منشورات ديهونيان (مدينة بولونيا- إيطاليا) «باللغة الإيطالية».
سنة النشر: ٢٠١٦.
عدد الصفحات: ١٦١ص.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

«اقتصاد الصالح العام».. لجان تيرول

سعيد بوكرامي *

يدعونا جان تيرول - العالم الاقتصادي اللامع، الذي حصل على جائزة «نوبل» في الاقتصاد عام ٢٠١٤، وجوائز عالمية أخرى- أن نُشاركه شغفه بتشخيص الاقتصاد العالمي، وإيجاد مخارج لمأزقه، من خلال كتابه الصادر مؤخرا عن دار بيف الفرنسية. دافع فيه عن رؤيته الاقتصادية الخاصة التي تستند إلى النظرية والحقائق لخدمة الصالح العام. ويعتبر المتخصصون في الاقتصاد كتاب تيرول أهم كتاب صدر هذا العام في العلوم الاقتصادية.

سَعَى هذا الاقتصادي الفذ والباحث ورجل الميدان إلى إقحام القارئ بلغة مبسطة. يمكن القول إنها لغة بيداغوجية، وتعليمية، لينخرط القارئ في ورشة إدراك ووعي ثرية بالخبرات الاقتصادية من خلال رحلة طويلة بين الموضوعات التي تؤثر على الحياة اليومية : الاقتصاد الرقمي، والابتكار، والبطالة، وتغيُّر المناخ، وأوروبا، والدولة، والتمويل، والسوق؛ ليقدم لنا بانوراما عن القضايا الرئيسية التي تهم الاقتصاد الراهن، وبذلك يأخذنا إلى قلب النظريات الاقتصادية التي أسهم في ابتكارها، واستحقَّ بفضل فرادتها أعلى جائزة في العلوم الاقتصادية.

يُمكن القول -دون مجانبة للصواب- أنَّ الكتاب يفكك بوضوح شفرة جميع القضايا الرئيسية للاقتصاد المعاصر: حدود الأسواق، وطرق التغلب على البطالة، والجدوى من الاقتصاديين، والتحديات المناخية، والأزمة المالية وأيضا الانفجار الرقمي، وذلك بكثير من الشفافية والصدق؛ بحيث يعترف في كثير من المناسبات بمحدودية تخصصه الاقتصادي؛ لهذا يلجأ إلى الاستعانة بعلوم الاجتماع وعلم النفس.

وقبل الخوض في مضامين الكتاب، نُلقي إطلالة على أقسامه الثلاثة: في القسم الأول -الذي يعنونه الباحث بـ«الاقتصاد والمجتمع»، يتضمن سؤالا ملتبسا: هل تحب الاقتصاد؟، أما الفصل الثاني، فيخصصه للحدود الأخلاقية للسوق، والذي يعنونه بـ«مهنة الباحث الاقتصادي»، ونجده يتحدث في الفصل الثالث عن الاقتصاد في المدينة. وفي الفصل الرابع يتحدث عن البحث اليومي للباحث الاقتصادي. أما الفصل الخامس فيخصصه لدينامية الاقتصاد. والفصل السادس «من أجل دولة حديثة»، والسابع «حكامة المؤسسة وواجباتها الاجتماعية». وفي الفصل الثامن يستعرض التحديات المناخية، والتاسع يستعرض كيفية محاربة البطالة، وفي العاشر يتطرق لمنعطفات أوروبا، وفي الفصل الحادي عشر يتساءل لماذا نحتاج إلى التمويل؟ وفي الفصل الثاني عشر يفسر أسباب الأزمة المالية للعام ٢٠٠٨؛ في حين خصص القسم الخامس للرهانات الصناعية، وهكذا سيتناول في الفصل الثالث عشر سياسة المنافسة والسياسة الصناعية. أما الفصل الرابع عشر، فيتحدث فيه عن كيفية التغيير الرقمي لسلسلة القيم. وفي الفصل الخامس عشر يعمق البحث عن الاقتصاد الرقمي وعلاقته بالتحديات المجتمعية. وفي الفصل السادس عشر يتناول موضوعا شائكا في عصر المعلوميات وهو الابتكار والملكية الفكرية. أما الفصل السابع عشر فيحدد فيه كيفية تنظيم القطاع الاقتصادي وهيكلته. وانطلاقا من عناوين الكتاب، نكتشف تدريجيا أن الكتاب يتمحور حول خمسة محاور رئيسية؛ هي:

- علاقة المجتمع بالاقتصاد كتخصص ونموذج.
- مهنة الاقتصادي، وحياته اليومية خلال البحث وانخراطه في المدينة.
- البُعد الاقتصادي للمؤسسات عامة والأوروبية خاصة: الدولة والسوق.
- عناصر التفكير حول أربعة تحديات الماكرو اقتصادي التي هي في صلب الاهتمامات الراهنة: المناخ والبطالة واليورو والتمويل.
- مجموع القضايا الميكرواقتصادية التي ضمها البحث تحت عنوان «الرهان الصناعي»؛ وتتمثل في: سياسة المنافسة والسياسة الصناعية، والثورة الرقمية -نماذج جديدة للتحديات الاقتصادية والاجتماعية- والابتكار وتنظيم القطاع؛ وبالتالي يمكن الانتباه إلى أن الكتاب يتمحور حول موضوعات مألوفة عند الجميع، لكن خطوطه العريضة ومفاهيمه غير مألوفة عند العديد من القراء الذين على الأرجح هم أقل معرفة، بنظرية المعلوميات، التي ساعدت الاقتصاد على التقدم خلال السنوات الأربعين الماضية. تستند هذه النظرية بداهة إلى: قرارات الفاعلين الاقتصاديين (الأسر والشركات والدولة) التي تعترضها محدودية المعلومات. ونتائج هذه القيود المعلوماتية التي توجد في كل مكان، وتتمثل في صعوبة إدارتها وفهم وتقييم السياسات التي تتبعها حكوماتهم، التي تحاول ضبط وتنظيم البنوك أو الشركات المهيمنة، لحماية البيئة أو إدارة الابتكار المرتبط بمصالح المستثمرين والممولين للمشروعات الصناعية من خلال مراقبة استخدام الأموال المرصودة لهذه للشركات، داخل نظامها الداخلي للأعمال وفي العلاقات الجماعية لأفرادها، وحتى في علاقتهم الشخصية الفردية، يشبه الأمر بناء هوية أو خلق اعتقاد مشترك.

ويقول تيرول: «يعيش معظمنا، في جميع أنحاء العالم، في ظل اقتصاد السوق الذي يخضع لتدخل الدولة. تنظيم للمجتمع قد نحبه، أو نكرهه، أو نتسامح معه، ولكن دائما لا نتساءل إذا كانت هناك رؤى أخرى ممكنة منذ الفشل الاقتصادي، الثقافي، الاجتماعي والبيئي للمخطط الاقتصادي، فإننا نواجه نوعا من الحتمية، المخففة بواسطة نوع من السخط سخط الفرنسيين على وجه الخصوص الذين يفتقرون إلى موجّهات؛ إذ يعتبرون الأكثر توجسا في العالم من السوق والمنافسة. بعضهم يشيد بالوضع الراهن، والبعض الآخر يرى العالم البديل غامضا؛ لأن السوق لم يعد مركز التنظيم الاجتماعي. بينما آخرون يدعون إلى دولة في حدودها الدنيا، تركز على وظائفها الأساسية: القانون والوظائف القضائية وأجهزة تنفيذ القانون ومهام الدفاع الوطني اللازمة لتأمين العقود والملكية اللازمة للمشاريع الحرة. هذه الرؤى غير ملائمة لتحقيق الصالح العام» (ص:٢٠٨-٢٠٩).

حينما يتحدث تيرول عن منطق البناء الاجتماعي وإخفاقات السوق، فهو يرد الأسباب إلى ما يلي:

الطبيعة التكميلية للسوق والدولة وأسس الليبرالية/ فشل الدولة/الأولويات السياسية وفقدان التأثير/إصلاح الدولة المتعثر. كما يصنف إخفاقات السوق فيما يمكن أن يؤثر على المبادلة، (على سبيل المثال: يمكن للشركات أن تلوث البيئة عند تصنيعها للمنتج الموجه للمستهلك) لا يمكن أن تتم المبادلة في غياب العلم بالأسباب (المشتري لا يتوفر على كل المعلومات الضرورية. ومن المحتمل أن يكون المشتري ضحية نفسه؛ لأنه لا يستطيع السيطرة على نفسه ويعتمد سلوكا متهورا (سلوك الإنسان ليس عقلانيا دائما). قد يتجاوز تنفيذ المبادلة قدرات الفرد (قروض البنوك مضمونة لا تتعدى بعض العتبات)، قد تتحكم بعض الشركات في قوة السوق (القدرة على فرض أسعار عالية على المستهلكين بينما المنتجات ذات تكاليف أقل أو تقديم منتجات ذات نوعية رديئة)، وإذا كان السوق عاملا في الكفاءة، فيجب أن تكون إنتاجيته عادلة غير خاضعة للتبعية المتبادلة بين السوق والدولة. يقول تيرول بهذا الصدد «السوق والدولة ليسا بدائل، بل هما، على العكس من ذلك، يعتمدان بشكل متبادل على حسن الأداء في السوق الذي يعتمد على الدولة الفاعلة والعكس صحيح، فإن الدولة الفاشلة لا يمكن أن تساهم في

كفاءة السوق أو تقديم بديل» (ص:٢١٦).

ويتحدَّث الباحث أيضا عن ضعف أداء سوق العمل الفرنسي القريب جدا من بلدان جنوب أوروبا التي تعاني من صعوبات اقتصادية هيكلية كتلك الموجودة في شمال أوروبا. ويبين ذلك على النحو التالي:

١- البطالة هي أعلى بكثير في فرنسا مما هي عليه في شمال أوروبا (ألمانيا وهولندا والدول الاسكندنافية) أو الأنجلو سكسونية.

٢- يمس أساسا أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥-٢٤ و٥٥-٦٤ عاما.

٣- يمس المناطق الحضرية وذوي المهارات المتدنية.

٤- البطالة الطويلة الأمد، هي إلى حد بعيد الأكثر ضررا وهي ترتفع بشكل مطرد منذ عام ٢٠٠٧.

٥- يعبر الفرنسيون عن شعور بضيق حقيقي في العمل، والذي ينتج عنه نقص في فعالية العمالة، وإلى علاقات عدائية والشعور بعدم الأمان في العمل.

٦- تدفع هذه النتيجة الكارثية فرنسا لإنفاقات ضخمة على سياسة التشغيل.

يقول الباحث عن وضع التشغيل في فرنسا: «وصلنا في نوفمبر ٢٠١٥ إلى حوالي ستة ملايين ومائة وواحد وأربعين ألفا من العاطلين عن العمل، ومن كل الفئات. إن سوق العمل الفرنسي مغلق نسبيا أمام المرشحين الجدد، خاصة في صفوف الشباب الذين يبحثون عن وظائفهم الأولى. ويعاني الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٥-٢٤ سنة من أجل العثور على عمل. معدل البطالة بينهم يصل إلى ٢٤٪. أما معدل عملهم فيصل إلى ٢٨,٦٪، وهي تتموقع بعيدا عن معدل التنمية الاقتصادية المحدد في ٣٩,٦٪ ومعدل شمال أوروبا المحدد في ٤٦,٨ في ألمانيا و٦٢,٣٪ في هولندا.

وفي السياق ذاته، يصرح تيرول: «حتى وإن كان عقد العمل شكليا، فليس المسؤول الوحيد عن الوضع الراهن» (ص:٣٤١). وحسب جان تيرول، فهناك أسباب أخرى للعطالة؛ هي:

- تكلفة التدريب المهني وتردي مستواه.
- عدم كفاية التعلم وتعاقب العمل/الدراسة.
- التعليم غير الملائم لطلب عمال الشركة والتأهيل غير الكافي.
- الاختيار الفرنسي للقيام بإعادة التوزيع لصالح الأجور المنخفضة وبواسطة قناة الحد الأدنى للأجور وليس من خلال الضرائب.
- تدبير التأمين على البطالة، والخدمات العامة والتشغيل.
- النقص في المرونة في مجال المقاولات.
- إغلاق بعض المهن يمنع خلق فرص العمل التي لا يزال الطلب عليها. وللحد من البطالة، وتشجيع الحكومات المتعاقبة في فرنسا (وجنوب شرق أوروبا ودول أخرى) شجعت الدول التنمية المستدامة وتمويل فرص العمل المدعومة. لكن لتيرول موقف معارض من سياسة الإصلاح التي اعتمدتها الدول الأوروبية عامة وفرنسا خاصة.

أ- الوظائف المدعومة: تعتبر الوظائف المدعومة بشكل عام استخداما سيئا للمال العام، وخاصة الوظائف المدعومة في القطاع غير الربحي. وتشير الإحصائيات إلى احتمال العثور على عقد دائم في نهاية العمل المدعوم ضعيفة، وأن المستفيدين من الوظائف المدعومة في القطاع غير الربحي هم أقل حظا للحصول على وظيفة بعد عامين من آخرين، وبالتالي فإن الأطروحة التي تدعم العمل هي نقطة انطلاق للإبقاء على التوظيف تحتاج إلى إثبات.

ب- العقود غير المستقرة: الغالبية العظمى من فرص العمل الجديدة وهي ٩٠٪ في العام ٢٠١٣ تتم من الآن فصاعدا بعقود محددة المدة، وكانت هذه النسبة ٧٥٪ في العام ١٩٩٩ ويعتقد باستمراريتها.

يُلاحظ تيرول أنَّ العمل ضمن مخططات التنمية المستدامة لا يناسب الموظف ولا صاحب العمل. كما أنه من المستحيل تقريبا تسريح العمال في فرنسا؛ لهذا لا يتم ذلك إلا قليلا، كما أن المحاكم تعاقب أرباب العمل، وبالتالي التشغيل ضئيل وقد أضحت الشركات أقل إنتاجية وازدادت البطالة في صفوف الشباب.

وللخروج من هذه الأزمة، يقترح تيرول استعادة الحق في الإقالة الحرة (باستثناء حالات التحرش سيئة السمعة أو في حالات الحمل، على سبيل المثال)؛ الحق في الإقالة سينعش الرغبة في التوظيف. لكن تيرول يعترف بأن عبء التسريح عن العمل يثقل كاهل المجتمع؛ لذا يجب تمويل التأمين جيدا ضد البطالة مقترحا ضريبة التسريح المؤقت، في الوقت الضروري للمسرَّح كي يعثر على وظيفة أخرى. وهذا من شأنه تشجيع أرباب العمل على مساعدة المسرَّحين على استعادة وضعيتهم النشيطة بسرعة. ولمنع التجاوزات، ستكون الضريبة على الإقالة محددة في راتب ستة أشهر، وهي الصيغة التي توجد في بعض الولايات الأمريكية. وبالتالي لن تتدخل المحاكم في تسريح العمال، كما سيعرف أرباب العمل سلفا تكلفة التسريح، عوضا عن أن تبقى اليوم التقديرات المادية عشوائية والأضرار الاجتماعية وخيمة. ومن ضمن الإجراءات التي يقترحها تيرول عقد واحد مصحوب بزيادة تدريجية في حقوق المسرحين عن العمل وواجبات الشركات، اعتمادا على الأقدمية والخبرة. يمكن لهذا العقد أن يلغى عندما تسوء أحوال الشركة دون الحاجة إلى تدخل القاضي في الحكم على واقع متردي (إن القاضي يحكم فقط على واقع إعادة تنظيم الشركة). وفي النهاية، يصبح فسخ العقود الجماعية من قبل الشركات وسيلة لزيادة مساهمتها في التأمين ضد البطالة. وتشكل هذه الثلاثية العملية البسيطة، والعادلة حافزا كبيرا لخلق اقتصاد تشاركي وتضامني وتنافسي في الآن نفسه.

يهتم تيرول بالاقتصاد العام، كنتيجة جماعية ومشتركة من التفضيلات الفردية، ومن الحوافز، لكن أيضا من العواطف والتصورات. الفاعل ليس فقط الإنسان الاقتصادي، بل هو أيضا الإنسان النفسي والإنسان القانوني. لذلك جاءت إضاءته ديداكتيكية معتمدة على مرجعية من الخبرة والمعرفة الراسخة. مما يتيح لنا أن نفهم كيف أن آراء الاقتصادي ليست دائما نفعية، ولكنها على الأرجح عقلانية. تماما كما يفعل عندما يقوم بتقييم السوق الأوروبية أو الدولية التي لا يراها في الوقت الراهن منافسة ولا منتجة، لكن من الأجدر أن تكون متكاملة. كما يجب أيضا على الدولة الحديثة، أن تكون وسيطا عادلا للمحافظة على استقرار السوق والمجتمع، بدلا من أن تكون مخططة تخطيطات غير محسوبة النتائج، وبدلًا من أن تكون دولة منتجة، فالأفضل أن تكون أكثر انضباطا وانتظاما.

هذا بالإجمال كتاب مفيد ومثير. يخوض في مفاهيم جديدة ودقيقة؛ مثل: مخططات التنمية، وملكية البيانات، والبرمجيات الحرة، وتسعيرة الكهرباء...وغيرها كنظم اقتصادية مهيكلة في أوروبا، لكن بلغة بسيطة وواضحة. من خلالها يوجه تيرول رسالة إلى الدراسين الاقتصاديين لتحسين دراساتهم وتبسيطها والنزول من أبراجهم العالية كي يتمكن غير المتخصص من فهم آليات الاقتصاد العالمي والاستعداد الفكري للتعامل معه. نال كتاب تيرول نجاحا كبيرا إذ بيعت منه في الأسابيع الأولى أكثر من خمسين ألف نسخة. ومازال الاهتمام به كبيرا. ولا غرابة في ذلك فقد كان هدفه الأساسي أن يصل كتابه المكتوب لأول مرة باللغة الفرنسية -كتبه السابقة مكتوبة باللغة الإنجليزية- إلى أكبر شريحة اجتماعية في فرنسا وأوروبا..

- الكتاب: «اقتصاد الصالح العام».
- المؤلف: جان تيرول.
- الناشر: دار بيف، فرنسا، ٢٠١٦.
- الصفحات: ٦٤٠ صفحة.
- اللغة: الفرنسية

* كاتب مغربي

«الكنيسة في العراق: التاريخ والتطور والإرساليات التبشيرية»

.. لفرناندو فيلوني

أمين منار *

أعادتْ الأوضاع المتوتِّرة التي تعيشها منطقة الشرق الأوسط في السنوات الأخيرة، لا سيما في العراق وسوريا، تحريك مسألة الأقليات والطوائف في الأوساط الدينية والسياسية الغربية. وتم التعاطي مع المسألة بشكل غلب عليه طابع الإثارة وافتقر إلى الرَّوية. جرى في غالب الأحيان تصوير العالم العربي بمثابة فضاء طارد ومعادٍ لمكوناته الدينية غير العربية وغير المسلمة؛ إمعانا في تجريده من رصيده الخلقي. والصورة فيها تلاعب فج لا يُنصف المتضررين، مع حصول انتهاكات فظيعة بشأنهم في الفترة الأخيرة، ولا تردع الظالمين، بل تسيء إلى العرب أيما إساءة. هذا الكتاب الذي نتناوله بالعرض يأتي ضمن موجة الانشغال بأقليات البلاد العربية لاسيما منها المسيحية. وقد آثرنا عرضه نظرا لخطورة مضامينه، ولما يُعبِّر عنه من مواقف تجاه التاريخ المشرقي عامة، والواقع السياسي العربي راهنا، ولما يحوزه مؤلفه من موقع داخل حاضرة الفاتيكان. فهو من تأليف الكردينال فرناندو فيلوني، من مواليد ١٩٤٦ بمندوريا الواقعة جنوب إيطاليا. الرجل يُعتبر من الوجوه البارزة لدبلوماسية حاضرة الفاتيكان؛ حيث شغل منصب القاصد الرسولي في العديد من المناطق خارج أوروبا، في إيران وهونج كونج والصين والفلبين والبرازيل، فضلا عن تقلّده مهام دبلوماسية في الأردن والعراق، إضافة إلى توليه مناصب حساسة في حاضرة الفاتيكان؛ حيث يشغل -منذ العام ٢٠١١- منصب مفتش أنجلة الشعوب، وهي أعلى الهيئات المعنية بالتبشير على نطاق عالمي.

ويتساءل فرناندو فيلوني في مستهل كتابه عن مدى قدرة الوجود المسيحي في العراق على الثبات مستقبلا، أم سيكون مصيره الاندثار على غرار الأقلية اليهودية؟ محاولا الإجابة عن ذلك السؤال من خلال إعطاء قراءة ذات طابع سياسي لما أحاط بالعراق خلال الحقبة الحديثة، وتأثير تلك الأوضاع على مسيحيي البلد. والكتاب يهدف بالأساس إلى بناء أواصر صلة بين الكنيسة العراقية والكنيسة الكاثوليكية، أكان ذلك في التاريخ القديم أم في التاريخ الحديث، ليخلص من خلالها إلى صياغة تاريخ للكاثوليكية في العراق. إذ لا يأتي الكتاب متابعة لتاريخ المسيحية في العراق بشكل عام، حتى وإن عاد المؤلف بذلك إلى رجالات التبشير الأوائل مع القديس توما والتلميذين عدي وماري.

ويتناول الكردينال فيلوني في الفصل الأول من الكتاب تاريخ الجماعات المسيحية الأولى في العراق، مفسرا دواعي انعزال الكنيسة العراقية -على حد زعمه- التي تشكل مكونا مهمًّا من مكونات المسيحية المبكرة الوارد ذكرها في (سفر أعمال الرسل٩:٢). حيث يذهب إلى أن مسيحية القرون الأولى في العراق كانت خارج نطاق سيطرة روما والقسطنطينية، وقد كانت تلك الاستقلالية اللاهوتية ناتجة في البدء عن نهْل مباشر من الأصول المسيحية، وليس لأسباب سياسية وجغرافية، كون العراق في منأى عن الصراعات الجارية على ضفاف المتوسط. ليتابع المؤلِّف في الفصل الثاني الحديث عن تاريخ الكنيسة في العراق إلى حدود القرن السادس عشر، ويتخلل ذلك تناول الحضور العربي والمغولي والعثماني؛ وذلك بدءا من منتصف القرن السابع الميلادي مبرزا مدى تأثير كل حقبة على الوجود المسيحي. ثم يركّز فيلوني في الفصل الثالث على حضور الكنيسة اللاتينية في أرض الرافدين، حيث يتناول مختلف أنواع التواصل طيلة الفترة المتراوحة بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر. ثم يخصص الفصل ما قبل الأخير إلى أحداث القرن العشرين، متناولا تاريخ العراق الراهن وما تخللته من اضطرابات سياسية طيلة الحروب التي خاضها نظام البعث وحتى احتلال العراق من قِبل الأمريكان وظهور ما يُعرف بتنظيم الدولة الإسلامية داعش. لينتهي في الفصل الخامس والأخير إلى العلاقات الرابطة بين الكرسي الرسولي في روما والعراق.

ضمن الباب الأول ينطلق كتاب فيلوني بعرض عام للحضور المسيحي في العراق، يأتي غائما وغير دقيق في عديد المواضع لافتقاره إلى الطابع التحليلي واعتماده أسلوب السرد والحشو للأحداث، يهيمن فيها تصوير للمسيحية العراقية تصويرا يغلب عليه طابع الفتنة والهرطقة، والحال أن تطور اللاهوت طبيعي أن ينشأ في ظل انشقاقات عقدية، وإن افتقر إلى سند سياسي على غرار السند الروماني الذي رافق المجامع المسكونية الأولى في الغرب. حيث لعبت السلطة الرومانية دورا فاعلا في عقد المجامع وفي قراراتها، مثل مجمع نيقية (٣٢٥م) ومجمع القسطنطينية (٣٨١م) ومجمع إفسس (٤٣١م) ومجمع خلقيدونيا (٤٥١م)، وهي المجامع التي أرست أركان المعتقد الثالوثي. حيث تجري كتابة تاريخ مسيحيي العراق في كتاب فيلوني من منظور غربي، باعتبار كافة أشكال الحكم التي شهدها العراق تحت حكم الفرس، والعرب، والمغول، والعثمانيين، وإلى حين تشكل الدولة العراقية الحديثة هي أشكال احتلال مارست ألوانا من الضغط والقهر على الشخصية العراقية المسيحية. وهي قراءة قاصرة على إدراك طبيعة حلقات تاريخ المجتمع العراقي لتجعل الفرز على أساس ديني هو المقياس العام المحدد.

والجلي أن ثمة صفحة من تاريخ مسيحيي العراق أُسقطت من الخلاصة التاريخية التي حاول فيلوني تقديمها عن هوية العراق المسيحية. فلو عدنا إلى تاريخ البدايات نلحظ أن التهديد البيزنطي المستمرّ على المنطقة، ما كانت مسيحية العراق والشام، ممثلة في النساطرة واليعاقبة، قادرة على الصمود في وجهه، ولا بوسعها الحفاظ على كيانها وخصوصياتها الدّينية المستقلّة من دون حضور الإسلام، وهو الأمر ذاته الذي واجهه أقباط مصر. يقول ميخائيل السرياني في هذا الشأن -وهو بطريرك السريان الأرثوذكس في القرن الثامن عشر- في مؤلّفه التاريخي الضخم: «لأن الله هو المنتقم الأعظم، الذي وحده على كلّ شيء قدير، والذي وحده يبدّل ملك البشر كما يشاء، فيهبه لمن يشاء، ويرفع الوضيع بدلا من المتكبّر. ولأن الله قد رأى ما كان يقترفه الرّوم من أعمال الشرّ، من نهب كنائسنا ودُورنا، وتعذيبنا بدون أيّة رحمة، أتى من الجنوب ببني إسماعيل، لتحريرنا من نير الرّوم... وهكذا كان خلاصنا على أيديهم من ظلم الرّوم وشرورهم وأحقادهم واضطهاداتهم وفظاعاتهم نحونا...». وهو تقريبا ما يلتقي فيه مع الحسن بن طلال في كتابه «المسيحيّة في العالم العربي» (١٩٩٥م)، حين يذهب إلى أن فترة حصول الانشقاق بين القسطنطينية وروما، كان قد مرّ على خضوع المسيحيين في مصر والشام والعراق للحكم الإسلامي قرابة أربعة قرون. وبقي، من بين هؤلاء المسيحيين، الملكانيون وحدهم في مصر والشام موالين لبيزنطة، وعلى علاقة موصولة بها سياسيا وكنسيا، كما كانوا من قبل. أما أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (الأقباط واليعاقبة)، وكذلك النّساطرة في العراق، فكانت بيزنطة بالنسبة لهم مصدر اضطهاد لا غير. لذلك رأوا في الحكم الإسلامي خلاصا من جور بيزنطة، فأبدوا استعدادا للتعاون معه منذ البداية. وهناك من يشير إلى أن الموارنة كانوا في

عداد المسيحيين الذين رحّبوا بحلول الحكم الإسلامي محل الحكم البيزنطي بالشام، خصوصا بعد أن صدرت قرارات المجمع المسكوني السّادس عام ٦٨٠م، وتبع ذلك حدوث الافتراق الكنسي بين الموارنة، والملكانيين في أبرشية أنطاكية.

لا يخلو كتاب فيلوني من روح الهيمنة التي رافقت كنيسة روما ونزعتها للتمدد، ضمن ما يُعرف بالنزعة المسكونية، لإخضاع كنائس العالم. ولكن صراعات السّيطرة على سدّة التّراتبية داخل الكنسية ينبغي ألاّ تخفي أن حوادث الانفصال ومطالب الاستقلال لبعض الكنائس، التي قابلها تلويح بالحرمان واتهام بالهرطقة، ما كانت ذات صلة بالمفاهيم العقدية المجرّدة، بل بحثا عن تحرر سياسي من التحالف الوثيق بين العرش والمذبح (أي الدولة والكنيسة). لذلك عند مراجعة تاريخ الكنيسة لابد من الحذر من مصادرة الحقيقة المغيَّبة، التي غالبا ما طمستها نعوت البدعة، والهرطقة، والمنحولة، والأبوكريفية، وغير القانونية، وهي إقصاءات أيديولوجية لطالما وُظّفت للطّعن في الأطراف المعارضة لإلغاء مشروعيتها، استدعتها الكنيسة المهيمنة ضدّ من خالفها الرأي. وقد غرق فيلوني طيلة الفصلين الثاني والثالث في هذا الانحياز لكنيسة روما دون مراعاة خصوصيات كنائس الشرق، معتبرا كل ما لم يرُق للكنيسة الكاثوليكية بدعة، ولو كانت تلك العقائد معبّرة عن الواقع الشّرقي ورؤيته وتصوّراته للمسيحيّة. إذ اعتبَر صاحب كتاب «الكنيسة في العراق» المرقيين هراطقة، وهو خطّ لاهوتي دعا إليه بريلّوس البصري، من بصرى الشام، في الولاية العربية الرّومانية، خلال القرن الثّاني. وملخّص رأي صاحبه أن المسيح خال من أي مسحة إلهية في ذاته، ولا ألوهية إلاّ ألوهية الآب التي حلّت فيه. كما اعتبر الأريوسيين الموحّدين -أتباع الكاهن أريوس، الذي عاش في بداية القرن الرّابع الميلادي- هراطقة، وقد انتشر مذهبه في شمال إفريقيا وامتد إلى الشام والعراق، والذي عُقد لأجله مجمع نيقية الشهير سنة ٣٢٥م. والأمر نفسه مع الآشوريين، الذين عدّهم هراطقة، وهم نساطرة رفضوا المذهب الرّوماني وشقّوا عصا الطاعة. وتعود نسبتهم إلى ثيودوروس المصيصي، المدعو نسطور، وهو ينحدر من أسرة آرامية عربية نزحت إلى شمال الشّام من بلاد العراق، التابعة في ذلك العهد إلى الدّولة الفارسية الساسانية، وقد مات نسطور بعد خلعه في المنفى، في صحراء مصر الشرقية.

على العموم، لم يكن تاريخ الكنيسة الرومانية في المشرق صفحة نقية كما يصوره فيلوني. فقد شاب العلاقة اضطراب لم ينته عند إكراه كنائس المشرق على الاعتراف بهيمنة روما، بل شرعت كما يرى جورج خضر، مطران جبل لبنان للرّوم الأرثوذكس، في تحوير لاهوتي أنشأت بموجبه كنائس تابعة، فكان من الآشوريين الكلدان الكاثوليك في العراق، ومن الأرثوذكس الرّوم الكاثوليك، ومن الأرمن الأرثوذكس الأرمن الكاثوليك،

ومن السّريان الأرثوذكس السريان الكاثوليك («مجلة المسرّة» بيروت، ٢٠٠٤، ص: ٧٢-٧٣).

وكما يورد فرناندو فيلوني بدأ التطلع مجددا إلى ربط كنيسة العراق بروما في الفترة الحديثة مع إنشاء مطرانية بغداد سنة ١٦٣٢ وتشكيل أول لجنة رسولية في سوريا خاصة بالشرق الأوسط سنة ١٧٦٢. كان الغرض البعيد من ذلك إيجاد سبيل لاختراق الدولة العثمانية النافذة وتحصين مسيحيي المشرق من مخاطر البروتستانتية. لتتطور مخططات الكنيسة الغربية في العراق في فترة لاحقة إلى رهان على المدرسة كأداة لخلق شخصية مسيحية عراقية مرتبطة بروما، وقد حاز اليسوعيون قصب السبق في هذا منذ العام ١٩٣١ من خلال بعث «الجمعية التربوية العراقية الأمريكية» التي خولت لها وزارة التربية العراقية إنشاء أول مدرسة، ستتطور في السنوات اللاحقة إلى ما يُعرف بـ«معهد بغداد» ١٩٣٢ و«جامعة الحكمة» ١٩٥٦. لكن الإشكال الماثل، أن تعليم الإرساليات التبشيرية في المشرق عامة ما كان دعما للطوائف المحلّية وربطا لها بواقعها وتعريفا لها بأصولها، بل هدفَ أساسا إلى ربط ولائها بالخارج. يصف جبران خليل جبران هذا الواقع الناتج عن تعدّد الولاءات الثّقافية والسياسية في مطلع القرن الفائت، ضمن كتاب «صفحات من أدب جبران» لنبيل كرامة (ص: ٦١-٦٢)، قائلا: «في سوريا مثلا كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصّدقة، وقد كنّا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضوّرون، ولقد أحيانًا ذلك الخبز، ولما أحيانًا أمَاتنا. أحيانا لأنه أيقظ جميع مداركنا ونبّه عقولنا قليلا، وأماتنا لأنه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا، حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب، كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها. فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية، تحول بالطبع إلى معتمد أمريكي، والشاب الذي تجرّع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيرا فرنسيا، والشاب الذي لبس قميصا من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا».

ويتناول فرناندو فيلوني في القسم الأخير من الكتاب مسائل راهنة تتعلّق بمسيحيي العراق، خصوصا في ظل النزيف الديموغرافي الحاصل، حيث تراجعت نسبة المسيحيين من ٥ بالمئة، أي بما يعادل مليون و٤٠٠ ألف مسيحي قبل الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣، إلى حوالي ٢ بالمئة اليوم. والجلي ما يطبع مسيحيي العراق من تنوع طائفي: أرمن وآشوريين وكلدان وسريان، كما تخترق تجمعاتهم الإثنية تباينات مذهبية: أرثوذكس وكاثوليك وبروتستانت وإنجيليون، اعترف القانون العراقي باثنتي عشرة طائفة منها. ويبقى تمركز جلّ هؤلاء، قبل الأحداث الأخيرة التي شهدها البلد، في بغداد وأربيل والموصل. وكما يشير فيلوني، يبقى تكتل الكلدان يميل إلى الشراكة اللاهوتية مع الكنيسة الكاثوليكية، في حين ينحو تكتل الآشوريين إلى تشييد كنيسة عراقية محلية. وأما تكتل السريان -الأقل عددا من الكلدان والآشوريين- فهو ينقسم إلى سريان كاثوليك وسريان أرثوذكس؛ في حين الأرمن فهم إلى الكاثوليك أقرب.

وعلى العموم؛ فالملاحظ أن بنية مسيحيي العراق الاجتماعية ليست بنية عشائرية ما جعل تشكيل عصبية داخلية بينهم ضعيفا بقصد خلق نوع من التكتل الواقي، وهو ما أبقاهم عرضة للتهديدات بشكل مستمر. وإلى جانب مشاكل الداخل، تجابه كنيسة العراق مشاكل أخرى متأتية من الخارج تتمثل في الكنائس العابرة للقارات، وهي كنائس متمرسة بالتحكم في اقتصاد المقدّس على مستوى عالمي، على غرار الإنجيليات الجديدة والكنائس التقليدية الكاثوليكية والبروتستانتية، والتي تحاول ابتزاز المستجير بسلخه عن هويته. لا نقدّر أن كنيسة جريحة، كحال كنيسة العراق اليوم، في ظل تهديد حقيقي لوجودها، قادرة على رفع تلك التحديات بمفردها ما لم يحصل تكاتف ووعي بأن ثروة التنوع الثقافي والديني في البلاد العربية هي ثروة الجميع.

- الكتاب: «الكنيسة في العراق.. التاريخ والتطور والإرساليات التبشيرية من البدايات إلى الراهن».
- المؤلف: فرناندو فيلوني.
- الناشر: مكتبة حاضرة الفاتيكان (روما-إيطاليا)، ٢٠١٦.
عدد الصفحات: ٢٥٥ صفحة.
- اللغة : الإيطالية

* باحث إيطالي من أصول مغربية

«المغامرة الغربية: الحداثة والعولمة».. لبول كلافال

مُحمَّد الحداد *

هل قضت العولمة على الحداثة، ووضعت حدًّا لمغامرة انطلقت من أوروبا منذ أربعة قرون؟.. هذا هو السؤال الذي يطرحه بول كلافال في كتابه الصادر مؤخرا. والكاتب كما هو معروف يعدُّ مؤسس الجغرافيا الثقافية، درَّس هذا الاختصاص أكثر من خمسين سنة بجامعة السوربون بباريس، وعمل على إثرائه بالعديد من المؤلفات من أحدثها «فضاءات السياسة» (٢٠١٠م)، و«من الأرض إلى البشر» (٢٠١٢م)، و«التفكير في العالم من خلال الجغرافيا» (٢٠١٥م)، فضلا عن الكتابين الذين لقيا شهرة عالمية قبل ذلك؛ وهما: «الأساطير المؤسسة للعلوم الإنسانية» (١٩٨٠م)، و«الجغرافيا في القرن الحادي والعشرين» (٢٠٠٣م).

وقد سعى كلافال في الكتاب الحالي إلى تقديم عرض شديد الكثافة لما دعاه بالمغامرة الغربية، في علاقة بالعولمة والحداثة. يحاجج الكتاب على أطروحة رئيسية وهي التمييز الحاسم بين هاتين الظاهرتين، عكس ما هو شائع لدى الباحثين عادة. ويؤكد أنهما يمثلان مسارين مختلفين لكل منهما منطقه الخاص، وليست العولمة نتيجة الحداثة كما يقال دائما، وإن ارتبط مصير هذه بتلك في بعض المراحل التاريخية. إنّ جوهر الأزمة التي تعيشها البشرية حاليا تتمثل من وجهة نظر الكاتب في تحوّل العلاقة من الارتباط إلى التعارض، واكتشاف أنّ الارتباط ليس القاعدة بل هو الاستثناء.

يُحاجج الكاتب على هذه الأطروحة بحجج مختلفة منها العودة إلى البدايات؛ حيث نتبين أننا أمام لحظتين تارخيتين مختلفتين. فاللحظة التاريخية لانبعاث الحداثة هي القرن السابع عشر، وقد جاءت نتيجة الحروب الدينية في أوروبا والحلول الجديدة التي تصورها الفلاسفة والسياسيون آنذاك للخروج من عُنق الزجاجة وكوارث التعصب الديني؛ فقامت الثورة الإنجليزية المدعوّة بالمظفرة سنة ١٦٨٨، وكانت فاتحة التنظيمات الحديثة التي تجسدت شيئا فشيئا في الدولة الوطنية والاقتصاد الصناعي والتعليم المدني.

أمَّا العولمة، فقد بدأت قبل ذلك بكثير، في عهد الاكتشافات الجغرافية الكبرى، وارتبطت بكريستوف كولومب (اكتشاف أمريكا) وفاسكو دي غاما (اكتشاف رأس الرجاء الصالح) وماجلان (أول رحلة بحرية حول العالم).

إنَّ التغييرات النوعية غير المسبوقة التي تراكمت في السنوات الخمسين الأخيرة تدفع إلى التساؤل من جديد عن العلاقة بين الحداثة والعولمة، ومناقشة الافتراض القائل بأنّ العلاقة بين العولمة والحداثة قد دخلت مرحلة من الصراع. يكفي أن نسجّل الارتفاع الهائل لعدد سكان المعمورة من ٢ مليار نسمة سنة ١٩٣٠، إلى ثلاثة مليارات سنة ١٩٦١، إلى سبعة مليارات سنة ٢٠١٠، أو أن نتأمل السرعة الفائقة التي أصبحت تميز تبادل المعلومات بين سكان المعمورة بفضل الإنترنت ووسائل الاتصال الحديثة. والسؤال المطروح هنا هو التالي: ما هو محرك هذه التغييرات غير المسبوقة في تاريخ البشر، أهي الحداثة (التطور) أم العولمة (إذا سلمنا مع الكاتب بالفرق بين الظاهرتين)؟

يعرِّف الكاتب الحداثة بأنها يوتوبيا اجتماعية نشأت في القرن السابع عشر في أوروبا وامتدت بعد ذلك إلى العالم كله، ومن أهم أركانها «الدولة الوستفالية» (نسبة إلى سلام «وستفالي» سنة ١٦٤٨ الذي أنهى الحروب الدينية في أوروبا، والذي أرسى مبدأ سيادة الدولة والتقسيم القانوني للفضاء الوطني السيادي، وهي التي أصبحت تعرف منذ القرن التاسع عشر بالدولة الوطنية. ولعلَّ أبرز شاهد اليوم على تراجع يوتوبيا الحداثة نستمده بالذات من الأزمة العميقة لهذه الدولة في كلّ أرجاء العالم حاليا. ومع أنّ هذا الشكل من التنظيم السياسي قد شهد عدّة أزمات في تاريخه فإن أزمته الحالية تعتبر الأكثر خطرا وقد تكون القاتلة.

ويُؤكد الكاتب أن المجتمع الأوروبي في نهاية العصر الوسيط لم يكن يختلف اختلافا كبيرا عن المجتمعات الأخرى مثل العالم الإسلامي أو الصين أو الهند. والسبق الوحيد الذي تميزت به أوروبا -وقد أصبح حاسما بعد ذلك- هو تطويرها للأسلحة النارية ولصناعة البواخر الحربية. ومع أن هذا الأمر كان يبدو ثانويا في البداية، فإنه مكّن أوروبا شيئا فشيئا من أن توسّع حدودها التجارية إلى ما وراء البحار، وترسي لأول مرة فارقا بين الحدود الوطنية والحدود التجارية. وكانت عمليات السيطرة على القارة الأمريكية أو فتح طرق مواصلات مكثفة نحو الهند دافعا رئيسيا لقيام ما أصبح يدعى لاحقا بالدولة الوطنية؛ إذ إنّ هذه العمليات تطلبت تمويلات ضخمة لا يمكن توفيرها إلاّ عبر الدول، وهكذا بدأت أوروبا تقسم إلى دول «وستفالية» سيادية أسهمت بدورها في تنمية الموارد المالية الناتجة عن الاكتشافات الكبرى. وفي هذه الظرفية بالذات، بدأت الفلسفة السياسية الحديثة تتخيل الاجتماع السياسي البشري في شكل تعاقدي محوره الحرية والمبادرة، بديلا عن النظرة الهرمية السائدة قديما للمجتمع والسلطة. ولم يكن لهذا العقد أن يتجسد إلاّ بشروط، منها توحيد اللغة داخل الفضاء السيادي الواحد (نشأة اللغات الوطنية)، وتعميم التعليم كي يصبح كلّ السكان واعين بحقوقهم وواجباتهم وقادرين على التفاوض حولها بطريقة معقلنة (نشأة التعليم العمومي)، وإخضاع كل مجالات الحياة البشرية إلى التقنين الموحّد والمساوي بين المواطنين (الدستور والقانون المدني)..الخ. وقد نشأت منذ البداية ثلاثة تأويلات كبرى لنظرية العقد: التنازل الطوعي عن الحرية الشخصية مقابل الحماية (العقد الاجتماعي من وجهة نظر هوبس)، أو دعم الحريات الشخصية بالليبرالية الاقتصادية (العقد حسب جون لوك)، أو إخضاع الحياة الاجتماعية والاقتصادية إلى الإرادة العامة والمصلحة العليا (العقد الاجتماعي لدى روسو). وكل تجارب الدولة الحديثة قد سلكت أحد هذه التأويلات فأفرزت ثلاثة أنماط كبرى: القومية والليبرالية والاشتراكية. لكن هذه الأنماط لم تخرج عن يوتوبيا الدولة الوستفالية. ومن هنا، فإنَّ الأزمة الحالية للدولة الوطنية تبدو مختلفة عن سابقاتها؛ لأنها تتمرَّد على اليوتوبيا الحديثة للدولة التي تواصلت منذ القرن السابع عشر وانتشرت من أوروبا إلى العالم كله. لقد عدّت بعض الأزمات السابقة بمثابة الانحراف عن الأصل، مثل النازية والفاشية والستالينية، أما ما يحدث اليوم فهو أقرب لانهيار النموذج المألوف.

وفي الواقع، ليست هذه أول مرة تهدّد فيها العولمة مبدأ الدولة الوطنية، لكن هذه أول مرة يبدو من العسير إيجاد توافق بينهما. لنتذكر أنّ فلسفة الأنوار كانت قد انتشرت تاريخيا في فترة تميزت عالميا بتطور مكثف للمبادلات التجارية، وكان ذلك سببا من أسباب انتشار التفاؤل بمستقبل العالم وانتشار فكرة الكونية، لكننا نعلم أيضا أنّه لا يوجد مثال واحد لتجربة حداثة واقعية تطورت خارج الدولة الوطنية. فما حصل فعلا هو أنّ الدول الوطنية الكبرى، مثل إنجلترا وفرنسا، نجحت في تحويل فضاءاتها الوطنية المستقرَّة إلى فضاءات اقتصادية مستفيدة من العولمة، وقد حصل ذلك في حدود الثلث الأخير من القرن التاسع عشر. ومع أنّ هذا التطوّر قد تسبب في منافسة قوية بين الدول انتهت بكارثة الحربين العالميتين الأولى والثانية، فإن يوتوبيا الدولة الوستفالية لم يسقط بل على العكس، أصبح محور النظام العالمي الذي ترعاه منظمة الأمم المتحدة.

لكنَّ الوضع بدأ بالتغير منذ السبعينيات من القرن العشرين. وكان لوسائل التواصل دور مهم في هذا التغير. يمكن على سبيل المثال أن نقارن بين النتائج

المترتبة على ظهور سكك الحديد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتلك المترتبة على انتشار الإنترنت في النصف الثاني من القرن العشرين. فلقد ساهمت سكك الحديد في صهر فئات الشعب الواحد وتقريب الشقة بين أنحاء الوطن الواحد، فأسهمت بذلك في دعم يوتوبيا الدولة الوطنية. أما الإنترنت فإنها تفكّك التواصل بين مواطني البلد الواحد بإعادة توزيع معولم للتواصل بين البشر. وإذا كانت سكك الحديد والإنترنت يشتركان في توسيع المبادلات التجارية، فإنهما يختلفان في رسم الإطار العام الذي يحصل فيه هذا التبادل. وبعبارة أخرى، لقد نجحت الدول الوطنية الكبرى سابقا في توظيف العولمة لصالحها، بينما أصبحت هذه العولمة منذ سبعينيات القرن العشرين تعمل ضدّها. لقد انتهت مرحلة التوافق بين الظاهرتين واستبدلت بصراع يهدّد إحداهما، أي الدولة الوطنية التي تمثل عماد المغامرة الحداثية كلها.

لقد بدا -مع الثورة الصناعية- أنّ يوتوبيا الحداثة قد أصبحت قدرا بشريا جامعا، يوحد الفئات الاجتماعية ويربط بين المصالح الاقتصادية والمصالح الوطنية، ويقلّص الهوة بين المدن والأرياف بفضل وسائل التواصل الحديثة، ويعمّم الطبقة الوسطى في كل مكان. ولم يكن الصراع بين الليبرالية والاشتراكية إلا صراعا بين تأويلين مختلفين لهذه اليوتوبيا. وفي خضم هذا الصراع بين الأيديولوجيتين في القرن العشرين، لم ينتبه كثيرون إلى أنّ الخاسر الأكبر كان المجتمع الزراعي التقليدي الذي انهار تماما، وانهارت معه العديد من القيم التقليدية التي كانت تحقق التجانس في المجتمع العميق. وعلى سبيل المثال، كان عدد المزارعين في فرنسا سنة ١٩١١ يمثل حوالي ٤٢ بالمائة من مجموع القوى العاملة، بينما يمثل المزارعون حاليا أقل من ٣ بالمائة من هذا المجموع. ويرى الكاتب أن العالم التقليدي هو الذي كان يرفد المجتمع بالقيم الأساسية التي تمثل «هويته» العميقة، وأن انهياره هو الذي فتح ما يعرف اليوم بأزمات الهوية، لا سيما وقد انفتحت كل المجتمعات على الهجرات المكثفة من الخارج وتعدّدت المنظومات القيمية فيها وتصادمت.

ليست الدولة الوطنية المؤسسة الوحيدة التي تنهار اليوم بسبب العولمة؛ فالمدرسة مثلا كانت ركنا من أركان اليوتوبيا الحداثية منذ بداية المغامرة. صحيح أن المدارس عرفت منذ أقدم العصور، لدى الإغريق مثلا، لكنها كانت في السابق نخبوية لا يرتادها إلا قلة من المواطنين. أما الحداثة فقد طرحت تعميم التعليم وفتحه لكل الفئات وللبنات والبنين، وجعلته يبدأ في مرحلة متقدمة من حياة الإنسان وينتهي في مرحلة متأخرة نسبيا، فكان وسيلة انصهار قوية للشعوب. وقد ارتبط التعليم الحديث بتغليب الكتابة على كل أشكال التواصل الأخرى، وعقلنة الفعل التواصلي عبر تقنين النشاط المكتوب. لكن التعليم يفقد اليوم وظيفته الانصهارية أمام وسائل التواصل الجديدة التي تقوم على المشافهة وتعيد الغلبة للملفوظ على المقروء، وتزعزع التنظيم المعقلن للتواصل العام وتحوله من الاستدلال

إلى الانفعال (يمكن أن نرى نتائج ذلك بوضوح في المجال السياسي؛ حيث أصبحت الانتخابات تدور حول إثارة انفعالات الناخبين بدل دفعهم إلى التفكير المعقلن في برامج المترشحين). فكأن الثقافات الشعبية الشفهية قد ثأرت لنفسها بعد أن أعلنت الحداثة موتها منذ ظهور الطباعة وتعميم فكرة المعارف الكونية الجامعة.

لقد مثل ظهور وسائل التواصل الجماهيري ثم الاجتماعي ضربة قوية لليوتوبيا الحداثية بأن أعاد الكاريزما إلى المجال السياسي. وكم يبدو بعيدا اليوم ذاك التقسيم الذي وضعه ماكس فيبر، في قمة ازدهار الحداثة، بين الحكم التقليدي القائم على الكاريزما والزعامة، والحكم الحديث القائم على العقلنة (نتائج الانتخابات الأمريكية الأخيرة يمكن أن تضاف شاهدا حاسما في استدلالات الكاتب في هذا الموضوع). فهذا العالم الكبير في علم الاجتماع لم يتوقع ظهور القنوات الفضائية والإنترنت ليشهد عودة المشافهة والخطابة في أحدث الوسائل التقنية، ما يترتب على ذلك من سيادة منطق الانفعال على منطق التعقل، واستعادة الذاكرات الشخصية والفئوية على حساب المصالح الوطنية أو المبادئ الكونية.

ولم تضعف الحداثة نتيجة هذا التغير في العلاقة بالعولمة فحسب؛ فثمة أيضا عوامل «داخلية» يستعرضها الكاتب، منها ظهور فلسفات ما بعد الحداثة منذ شوبنهور ونيتشة، وفلسفات الارتياب مع ماركس وفرويد، والثورة العلمية الثانية المرتبطة بنظرية النسبية والفيزياء الكوانتية، ومنها خيبات الأمل التي نتجت عن الحروب المدمرة والمشاريع الاستعمارية. فقد عصفت مثل هذه العوامل بالإيمان بالعلم والتقدم بل أصبح العلم في قفص الاتهام لأنه تحول أحيانا إلى نقمة على البشر؛ فهو مصدر الأسلحة الفتاكة والمواد السامة التي تهدّد البيئة والتخلص من العمال باستبدالهم بالآلات...إلخ. فهيأت هذه السياقات بدورها المجال أمام تحقيق الغلبة للعولمة على الحداثة، مع أن بعضا مما ينسب إلى الحداثة من آفات هو من ذنوب العولمة.

هكذا انتقلت العلاقة بين العولمة والحديثة من الاحتواء إلى التناقض؛ فالعولمة التي نشأت مع الاكتشافات الكبرى ووفرت الأموال الضخمة لتحقيق تحولات نوعية في حياة البشر منحتهم ازدهارا أعطى الانطباع بانتصار نهائي لمشروع الحداثة الذي طرحه الفلاسفة والمنظرون بداية من القرن السابع عشر، هي التي تقوم منذ سبعينيات القرن العشرين بوظيفة عكسية، إذ تعطي الانطباع المعاكس باستنفاذ هذه اليوتوبيا الجديدة تاريخيا كما استنفذت يوتوبيات أخرى قبلها. وما أزمات الدولة الوطنية اليوم، أو التعليم، أو البطالة، إلاّ نتائج مباشرة لهذا التحوّل العميق.

بَيْد أنَّ الكاتب لا يخصص إلا الفقرات الأخيرة من كتابه للتفكير في مستقبل هذا الوضع. وهو يرى أنّ العولمة لا تحمل بديلا عن الحداثة فلذلك يقترح تدارك الأوضاع و«تعديل» اليوتوبيا الحداثية كي لا تنهار تماما. والواقع أنّ هذا الكتاب ينبغي أن يفتح نقاشا حول المستقبل أوسع بكثير مما يرد في صفحاته الأخيرة؛ لأنَّ لُب الموضوع هو بالذات غياب البديل. ما هو البديل المطروح اليوم عن الدولة الوطنية سوى الفوضى الاقتصادية والسياسة؟ وما هو البديل عن تعميم التعليم سوى انتشار الجهل والتطرف؟ وما هو البديل عن الدور التعديلي للدولة في الاقتصاد سوى قانون الغاب وتدهور مستوى عيش قطاعات واسعة في المجتمع؟

أم أنه يمكن أن نتصوّر العالم يعيش مستقبلا دون يوتوبيا ومثل عليا، وينظم نفسه حسب موازين القوى الواقعية أو الافتراضية التي تخلقها وسائل التواصل الجماهيري والاجتماعي؟ هل نصل هنا إلى نهاية التاريخ بنهاية اليوتوبيا بكل أشكالها، إذا سلمنا مع الكاتب أن الحداثة يوتوبيا اجتماعية ومغامرة غربية استمرت أربعة قرون؟ أم أنه يمكن أن نتصور مسلكا ثالثا، يتمثل في نشأة يوتوبيات عديدة في عصر العولمة الجامعة، وأن نهاية المغامرة الغربية هي بداية مغامرات أخرى «قطاعية»، تعلن نهاية سيطرة أوروبا على التخيل البشري للمجتمع والمعرفة؟

.. إنَّ المعطيات المكثفة التي جمعها المؤلف في كتابه تمثل في كل الحالات مدخلا متميزا لفتح حوار فلسفي وحضاري عميق حول مجموع هذه الإشكالات، وهي بالتأكيد إشكالات موحدة بين البشر وإن لم تكن حلولها بالضرورة موحدة بينهم.

- الكتاب: «المغامرة الغربية: الحداثة والعولمة».
- المؤلف: بول كلافال.
- الناشر: منشورات العلوم الإنسانية، باريس، ٢٠١٦.
- اللغة: الفرنسية.

* أستاذ كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة للأديان

الأخلاق في العالم الواقعي مقالة موجزة في الأشياء التي تهم .. لبيتر سينجر

محمد الشيخ *

شهدت ساحة الفلسفة الأخلاقية انتعاشا بالغ الأهمية في العقود الأخيرة. ذلك أن عالم اليوم يطرح من المعضلات الأخلاقية الشيء الكثير: بدءا من مشكلة «القتل الرحيم» إلى مسألة «الإرهاب»، مرورا بمسائل شأن «الاستنساخ» و«الحياة الخاصة» وغيرها من الإشكالات الخلقية المعتاصة. ولعل أحد أبرز مفكري الأخلاق في زماننا هذا الفيلسوف النباتي الأسترالي- الذي لم يأكل لحما منذ ٤٣ حولا- بيتر سينجر (١٩٤٦-) الذي صنفته مجلة «تايم» (٢٠٠٥) بوصفه أحد أهم الشخصيات العامة المائة الأكثر تأثيرا في العالم، وزاد المعهد السويسري Gottlieb Duttweiler Institute- وهو معهد للتشاور وتداول الأفكار- على الأمر، فصنفه عام ٢٠١٣ بحسبانه ثالث أهم شخصية فكرية مؤثرة في العالم. وقد عرف عنه إثارته لمواضيع أخلاقية مهمة ارتبطت ارتباطا وثيقا بعالم اليوم: صلاتنا بالحيوانات، مسائل الحياة والموت وآدابهما، مسألة مساعدة الناس الأكثر فقرا وعوزا في العالم ...

وها هو اليوم يطلع علينا بجماع مقالاته في شأن الأخلاق لا النظرية، ولا المعيارية، وإنما الأخلاق التطبيقية. وهي المقالات التي نشرها في إطار مشروع Project Syndicate الذي انطلق منذ عام ٢٠٠٥ والذي كان ينشر مقالاته في ٤٥٠ وسيلة تواصل. جريدة. في ١٥٣ بلدا. هذا فضلا عن متفرق المقالات في أشهر الجرائد العالمية: نيويورك تايمز، واشنطن بوست، نيويورك دايلي نيوز، فري إنكواري، إيدج، سانداي مورنين هيرالد ... وقد بلغت المقالات ٨٦ مقالة كتب معظمها بمفرده وبضعا منها بالاشتراك مع باحثين آخرين.

ينطلق بيتر سينجر في أفكاره التي دونها في كتابه، كما في مشروعه الفكري الأخلاقي بعامة، من مقدمتين اثنتين: أولهما؛ أن الفلسفة الأخلاقية من شأنها أن تساهم مساهمة حيوية في أشد المناقشات استعجالية اليوم. ذلك أن أهمية حصة درس الفلسفة تكمن في أنها الحصة الأساسية التي قد تحول شخصا إلى نباتي، أو إلى محسن إلى الفقراء الإحسان المثمر المجدي، أو إلى متبرع على الغرباء . وهي المفاهيم الأساسية التي تدور عليها أخلاقيات سينجر. فهو رجل نباتي إحساني إكرامي محامي عما يسميه «رفاهية الحيوانات» منظر لما يعرف باسم «حركة تحرير الحيوانات» . الشيء الذي لا تفعله حصص دروس أخرى.

وثانيها؛ أن الأحكام الأخلاقية . من مثل: «هذا أمر خاطئ أخلاقيا وهذا أمر مصيب» . وعلى عكس أحكام الذوق . «يعجبني هذا اللون أو هذا النوع من المثلجات» . ما كانت هي بالأحكام الذاتية، ولو كانت هي مجرد أحكام ذاتية لما احتاجت إلى التدليل عليها واكتُفي فيها بالصيغة . «يعجبني هذا الأمر لأنه يعجبني وكفى»، فلا يمكن أن تسأل شخصا ما، مثلا، «لماذا يعجبك هذا النوع من المثلجات؟» . وإذا ما كنا نقر بأن الأذواق تختلف، فإننا نعتقد أن من المهم الاحتجاج لمسألة «الموت الرحيم» أو لمسألة «أكل اللحوم». فلا نعتقد حين نقول لشخص ما :«لا تضرب طفلك» أننا فقط نمتعض ذاتيا من الفعل، وإنما لأننا نعتبره فعلا خاطئا من الناحية الأخلاقية. وتلك هي النزعة الموضوعية في الأخلاق التي تقوم ضد النزعة الذاتية، والتي ترى أن موقفنا من إنهاء عذابات شخص في حالة كوما عميقة لا يتعلق بأمر ما إذا كانت لدينا مشاعر ومخاوف، أو ما إذا كنا عشنا اللحظة بعينها، وإنما لأن لنا حججا عن منع سكرات الموت الشديدة أكنا معنيين بها أم لا.

في مدخل كتابه، يذكرنا بيتر سينجر بأننا «كلنا نقوم باختيارات أخلاقية»، وأننا غالبا ما نقوم بذلك من غير وعي منا. أكثر من هذا، عادة ما نتبنى تعريفا للأخلاق على أنها تتعلق بطاعة قواعد تبدأ على النحو التالي: «ينبغي عليك أن ...»، وأن العيش أخلاقيا إنما معناه العيش ضمن دائرة هذه القواعد وعدم خرقها. لكنه سرعان ما يلاحظ أن هذا التصور للأخلاق تصور غير تام. وعدم تمامه ناجم عن أمرين: أولا؛ إنه تصور ينظر إلى الحاضر ولا ينظر إلى المستقبل (الأجيال القادمة)؛ ومن ثمة فإن أخلاقنا ليست بأخلاق مسؤولية. وثانيا؛ إنه تصور ينظر في حدود نوعنا البشري ولا ينظر في حقوق الأنواع الأخرى غير البشرية؛ وبالتالي فإن أخلاقنا تسقط في التعصب لنوع من الكائنات ضد كل الأنواع الأخرى. كما يذكرنا بأن ثمة التزامات ومسؤوليات للمواطنين في المجتمع الديمقراطي. فالكثير من القرارات تتضمن اختيارات أخلاقية، وبمكنة المواطنين من المتمرنين على التفكير الأخلاقي أو على الفلسفة الأخلاقية أن يؤدوا دورا مهما في المجتمع، معيبا على الفلاسفة . في العالم الأنجلوسكسوني . أنهم كانوا يهتمون بتحليل «الكلمات» و«المفاهيم» الأخلاقية . ضمن ما يعرف تحت مسمى مبحث «ما بعد الأخلاق» Meta-Ethics . ويشيحون بنظرهم عن الأسئلة والمعضلات الأخلاقية ذات المضمون . ما الذي ينبغي لنا أن نفعله في هذه الحالة أو في تلك، وأمام هذا الإعضال الأخلاقي أو ذاك؟ . وهو المسمى بالأخلاق الجوهرية أو ذات المضمون Substantial Ethics. وهكذا، فأنت واجد الفيلسوف الأنجلوسكسوني عندما تسأله: ما الذي ينبغي عليَّ أن أفعله في أمر كذا أو كذا؟ يجيبك: ما الذي يعنيه مفهوم «الخير»؟ وما وجه «الخيرية» في «الخير»؟ ولا يسألك عن سؤالك الأخلاقي الحارق.

ولا ينكر بيتر سينجر . في إفضاءة منه سخية . أنه هكذا كان حال النظر الأخلاقي أيام شبيبته. ويرى أن من حسن حظه أن ثورة الطلاب، في أواخر الستينات من القرن الماضي وأوائل السبعينات منه، غيرت الطريقة التي كانت تُزاول بها الفلسفة الأخلاقية وتُدرَّس. ففي عهد حرب فيتنام والكفاح ضد العنصرية والتمييز الجنسي وتدمير البيئة، طالب الطلبة بأن تمسي المحاضرات الجامعية ذات صلة بالمسائل الواقعية الملحة، مما دفع بالأساتذة إلى العودة إلى أصول مباحثهم، لائذين بسقراط وهو يسائل تلامذته حول طبيعة العدالة وما الذي يتطلبه أن نعيش عادلين؛ فكان أن ملكوا شجاعة طرح أسئلة نظيرة لتلك التي كان يطرحها طلبتهم وأتباعهم والجمهور العريض من أفناء الناس.

وهكذا وبوفق هذه الروح جاء كتابه الأول . الديمقراطية والعصيان (١٩٧٣) . الذي كُتب على خلفية مقاومة التمييز العنصري والجنسي وحرب فيتنام. وقد تساءل عن متى يكون العصيان المدني مبرَّرا في نظام ديمقراطي. ومنذ ذاك الحين ارتأى أن يعالج تلك القضايا التي تهم الناس من خارج شعب الفلسفة. وذلك كله ضدا على تصور رائج في بعض الأوساط الفلسفية مفاده أن ما من شيء يمكن للناس الذين لم يدرُسوا الفلسفة فهمه إلا وهو شيء ضحل لا يمكن لفيلسوف حق أن يقول به. وعلى ضد هؤلاء، صار يذهب إلى أن ما من شيء أمكن قوله بوضوح إلا ونَمَّ عن أنه تم التفكير به في وضوح. في تحية خفية منه إلى الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتجنشتين (١٨٨٩- ١٩٥١) الذي جعل من «الوضوح» معيارا أساسيا للفلسفة العميقة.

والكتاب منظورا إليه في جملته عبارة عن مختارات ستة وثمانين من كتاباته القصيرة. ورغم ما قد يكون للمقالات الصحفية من نزوع إلى التعلق بالشأن الظرفي، مما حدا بالمفكر الاقتصادي والاجتماعي الفرنسي برودون (١٨٠٩- ١٨٦٥) إلى القول: «إنما الجريدة مقبرة الأفكار»، إلا أن بيتر سينجر يرى أن بعض الأفكار تبقى حية، بل وتنتهي إلى دفن حفاري قبرها، بل وتؤثر أكثر من المؤلفات الفلسفية الضخمة في الجمهور العريض الواسع.

إن تأمل عناوين هذه المقالات الستة والثمانين التي حواها الكتاب . والتي كتبت على مدى عقد من الزمن

ونيف (٢٠٠٥-٢٠١٦) . يشي بمواضيع وإشكالات النقاش الأخلاقي اليوم، وذلك سواء من جهة الموضوعات. الأسئلة الأخلاقية الكبرى، الحيوانات، الحياة والموت والقتل الرحيم والانتحار ومشاكلها، البيو- إتيقا «الأخلاقيات الحيوية» والصحة العمومية، الجنس والجنوسة، فعل الخير، السعادة، السياسة، الحكامة الشاملة، العلم والتكنولوجيا، الحياة واللعب والشغل . أو من جهة الإشكالات التي تطرحها.

ثمة موضوعات وردت في الكتاب من المألوف أن نعثر عليها لديه في كتبه الأخرى. لكن في هذا الكتاب ثمة أيضا جديد موضوعات لم نعهدها في كتاباته، شأن أخلاقيات الفلاحة المعدلة وراثيا أو أخلاقيات بيع الكلى أو المنزلة الأخلاقية لوعي الإنسان الآلي أو السعادة وكيفية إشاعتها ... وهو يذكر أن هذه المسائل . في إطار تجديده النظر الأخلاقي . أمست تلعب دورا مهما في «رؤيته الأخلاقية»، هذا فضلا عن المقالة الختامية في الكتاب المتعلقة بتأملات في رياضة الألواح الشراعية ... وتكمن مفاجأة الكتاب في أن من يعرف مواقفه في كتبه السابقة سوف يفاجأ بمواقفه في موضوعات أخرى. وهو يلتمس من قارئه أن يظل ذا عقل واسع منفتح. ويلوح بتحد . أكثر من ذلك، في الحقيقة يرجو أملا . ضد أولئك الذين هم مقتنعون سلفا بأنه ليست تكون للفلاسفة مساهمة بإبداء آرائهم في مشاكل ذات أهمية بالغة، راجيا أن يقنعهم هذا الكتاب بحجية ووجاهة هذه الدعوى.

هو إذن كتاب في الأسئلة. وهي أسئلة لم تكن معهودة في تاريخ الفلسفة الأخلاقية:

ففيما يخص الأسئلة الأخلاقية الأساسية، يطرح تساؤلات من طراز جديد: هل الدين ضروري للأخلاق؟ ولماذا يُضَحي بعض الناس بأنفسهم لإنقاذ الآخرين وآخرون لا يفعلون؟ وهل ثمة عقار أخلاقي يمكن أن يتناوله غير الأخلاقيين فيتحسن خلقهم؟ وكيف لنا بأن نرحم من لا يرحم؟ وهل للرحمة من حدود تقف عندها فلا تتعداها؟ وإلى أي مدى يمكن أن نغفر لمن أذنبوا الذنب الأخلاقي في حقنا أو في حق غيرهم؟ وهل ثمة شيء مهم؟ وهل ثمة تقدم أخلاقي؟

وفي أمر الحيوانات يتساءل: هل الحيوانات أشخاص أو أناس؟ وهلا أمكننا أن نبرر ما نفعله بالحيوان من قنص وصيد وحجز وتعذيب؟ فضدا على «التسيد على الحيوان» . على نحو ما تدعونا إليه الأديان . يدعو إلى طرح ما يسميه «قضية الحيوان» من دون ما ادعاء مسبق بأن الحيوانات إنما خُلقت من أجلنا. إذ ما كنا . نحن معشر البشر . سوى نوع بين أنواع تطورت على وجه هذا الكوكب. وإن بقية الأنواع لتحوي بلايين الحيوانات غير البشرية التي يمكنها أن تبدي الألم، كما يبديه الإنسان، أو تستلذ الحياة، مثلما يستلذها بنو البشر. فهل ينبغي . بعد هذا . لمصالحنا أن تُعتبر على حساب مصالحها؟ أليس في هذا تفضيلا لمصلحة نوع على أنواع أخرى . وهو ما صار يعرف باسم «التمييز النوعي» Specism ؟

وهكذا مثلا يفتتح مقالته التي كتبها في ٢١ أكتوبر من عام ٢٠١٤ على النحو التالي: «يبلغ تومي من العمر ٢٦ عاما. وقد حبس حبسا انفراديا في قفص من أسلاك. لم تثبت ضده في يوم من الأيام أية جريمة قد يكون حبس لأجلها، ولم توجه إليه أية تهمة. وهو لا يوجد

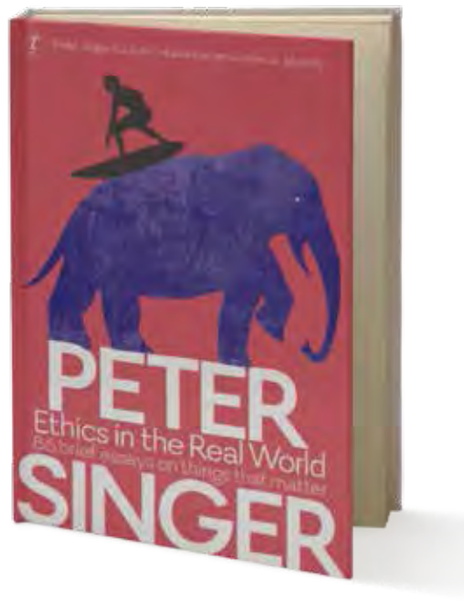

في غوانتنامو وإنما في كلوفرفيل بنيويورك. كيف صار هذا الأمر ممكنا؟ «ببساطة» لأن تومي قرد من فصيلة الشامبانزي ...» ويدافع بيتر سينجر عن فكرة أن القردة العليا «أشخاص» تقيم وشائج وجدانية مع بني جنسها كما يفعل الإنسان، وتحزن على فقد محبوباتها كما يحزن الإنسان، وهي كائنات واعية قادرة على التفكير كما الإنسان، وقادرة على استباق الأمور والتخطيط كما هم بنو آدم، بل تمتلك أسسا للأخلاق في استجابتها لتصرفات قردة أخرى . وضد على الصور الكاريكاتورية المعارضة، يؤكد على أن القول بأن الشامبانزي «شخص» لا يعني منحه حق التصويت، ولا الحضور إلى المدرسة، ولا إقامة دعوى ضد الإساءة إليه والافتراء، وإنما يعني إعطاءه حقا أساسيا لكي تكون له منزلة اعتبارية قانونية، بدل حسبانه مجرد «موضوع»؛ وبالجملة عَدُّهُ كائنا ذا كرامة، لأنه كائن ذو مشاعر.

وفي شأن الموضوع الثالث المتعلق بأمر قدسية الحياة يتساءل بيتر سينجر: أثمة إلزام أخلاقي بالتبرع بالأعضاء؟ وهل الصحة العمومية تتعارض مع الحرية الشخصية؟ وهل ينبغي لنا أن يمتد بنا العيش إلى ألف سنة؟

وفي شأن الجنس والجنوسة، يتساءل بيتر سينجر عما إذا كان مفهوم «زنا المحارم» ينطبق على صلة البالغين والقصر وحدها أم يطال ذلك صلة بالغين ببالغين؟ وإلى أي حد ينبغي اعتبار الجنس أمرا هاما في حياة الإنسان؟

وفي أمر السعادة يتساءل بيتر سينجر: هل نقدر على رفع مستوى السعادة القومية؟

وفي شأن السياسة يتساءل: لماذا نصوت؟ وهل المواطنة حق؟ وهل علينا توقير وتشريف العنصريين؟

وفي شأن الحكامة الشاملة يتساءل: هل الدبلوماسية المفتوحة أمر ممكن؟ وهل على الملوثين للبيئة أن يؤدوا أكثر من غيرهم على ما اقترفت أيديهم في شأن التغيرات المناخية؟

وفي أمر العلم والتكنولوجيا، يتساءل: هل للكائنات الآلية من حقوق؟

وفي الموضوع الأخير: هل تناول المنشطات أمر خاطئ أخلاقيا؟ وهل يجوز الغش في لعبة كرة القدم؟

لهذا الكتاب فضائل عدة:

منها أنه يمكن اعتباره من أحسن المداخل إلى الفلسفة بعامة وإلى فلسفة الأخلاق المعاصرة بخاصة. فهو كتاب مؤنس: يؤنسنا بأسماء فلاسفة كبار، كما يؤنسنا بأفكار فلسفية أساسية.

ومنها أن قصر مقالاته والطريقة التشويقية التي كتبت بها قد تحمل القارئ على قراءته كما يقرأ قصص ألف ليلة وليلة في كل يوم مقالة.

ومنها أنه يذكرنا بحقوق غيرنا من الكائنات علينا، فلا يترك كائنا إلا وذكرنا بحقوقه علينا: النبات، السمك، الحوت، الدجاج، القردة ...

على أن آراء بيتر سينجر لا تخلو من أن تطرح معضلة أخلاقية لم يطرحها قط في كتابه، وكان مفكرو العرب من المهتمين بآداب المذاهب قد طرحوها. وهي مسألة صلة المذهب بلازمه: هل «لازمُ المذهب» . أي ما يلزم عن القول بمذهب ما أو عن اعتناقه، حتى ولو لم يقل واضع المذهب بذلك . يُعَدُّ جزءا من المذهب أم لا؟ وهل صاحب المذهب مسؤول عما يلزم عن مذهبه من أفعال، كما يُحَمِّل البعض، مثلا، ابن تيمية أفعالَ السلفية الجهادية في زماننا هذا، أو كما حَمَّل البعض ماركس أفعال ستالين؟ أستحضر هذه المسألة بعدما قرأت في إحدى الجرائد الأمريكية منذ أيام عن أم مطلقة تتبنى المذهب النباتي . Vegarism . على نحو ما يقول به سينجر وأقرانه، بلغ بها حرصها على تطبيق مبادئ المبدأ . ومنها منع أي غذاء اصطناعي عن ابنها وأي لحم أو غذاء من أصل حيواني، والاكتفاء بالموارد الطبيعية وبالماء وبالتعرض إلى أشعة الشمس الطبيعية . إلى حد تعريض حياة ابنها إلى الخطر؛ مما حدا بالأب إلى رفع دعوى على طليقته طالبا لحضانة الطفل. لست أدري ما إذا كان بيتر سينجر قد قرأ عن هذه الحادثة وحوادث أخرى دائرة على بعض مخاطر النزعة النباتية المتطرفة . أخرجت حولها أفلام . وعما إذا كان قد طرح على نفسه سؤال «لازم المذهب» هذا، وهو الذي ما يفتأ يذكرنا بأخلاق المسؤولية. مجرد تساؤل.

عنوان الكتاب: الأخلاق في العالم الواقعي
Ethics in the Real World:
82 Brief Essays on Things That Matter

المؤلف: بيتر سينجر
Peter Singer

لغة الكتاب: الإنجليزية

دار النشر: مطابع برينستون الجامعية
Princeton University Press

سنة النشر: ٢٠١٦

عدد الصفحات: ٣٧٦

* أكاديمي مغربي

ثقافة النمو: أصول الاقتصاد الحديث .. لجويل موكر

محمد السالمي *

ما العوامل التي أسهمت في الثورة الصناعية؟ قدَّم خبراء الاقتصاد والمؤرخون أجوبة مُختلفة، من بينها دور الطاقة الرخيصة والأجور المرتفعة في تحفيز الابتكار التكنولوجي؛ واستخراج الموارد الاستعمارية، وغيرها. ولكن، نشأ توافق في الآراء في السنوات الأخيرة أن «جودة المؤسسات» هي العامل المركزي في تفسير الأداء الاقتصادي. فكثير من منظري التطور الاقتصادي من أمثال رودريك، وأسيموغلو وغيرهم يرون أنّ القانون والنظام، وحقوق الملكية، والنظام الخاص في إنفاذ العقود، والحكم الفعال وتوفير الخدمات والسلع العامة هي من بين الآليات التي ساهمت في التطور الاقتصادي.

ومع ذلك، فالثورة الصناعية الأوروبية كانت في ذروة التقدم التكنولوجي مما أدى إلى نمو وازدهار في القارة الأوروبية، وليس فقط في كفاءة السوق وتنوعه. فالعامل المؤسسي بمعناه «الضيق» مثل التجارة والتخصص، وسيادة القانون والاقتصاد المدني، وجودة الحكومة لا يمكن أن يفسر لنا الصورة الكاملة من النمو الحديث. فإذا استند النمو قبل عام ١٧٥٠ بشكل أساسي على النمو السميثي "smithian growth"، ومن ثم بشكل متزايد على الابتكار أو «العلم النافع»، فما هي الديناميكية؟.

هناك طريقة واحدة لتناول القضية وهي: ما نوع المؤسسة التي كان لها دور أساسي في تحقيق ارتفاع الابتكارات الفكرية والتي أدت في النهاية إلى الثورة الصناعية؟ يأتي جويل موكر أستاذ العلوم والآداب في جامعة نورث ويسترن في كتابه «ثقافة النمو: أصول الاقتصاد الحديث» ليتناول هذا اللغز في التاريخ الاقتصادي المؤسسي الجديد. يعتبر جويل أحد رواد علم التاريخ الاقتصادي، ورئيس تحرير موسوعة أكسفورد للتاريخ الاقتصادي، كما له مؤلفات عدة، وإسهامات كبيرة في قضايا التطور الاقتصادي.

لحل هذه المسألة، نحن بحاجة للتعامل مع «الثقافة». أي جزء من الثقافة؟ ففي المقام الأول يجب التعامل مع المُعتقدات حول البيئة المادية وعلاقات البشر به. وعندما نتحدث عن «الثقافة» يجب الأخذ في الاعتبار بأنّها أقلية صغيرة مثل النخبة المثقفة، وليس ثقافة شعبية: مثل القراءة والكتابة، والانفتاح؛ حيث إنّ التطور في العلوم والتكنولوجيا يكون مدعومًا من قبل عدد قليل جداً من الناس، أو أقلية صغيرة داخل فئة من المُثقفين.

يأتي جويل لشرح نموذج سوق الأفكار وتطوره في تلك الفترة وذلك عبر طرح تفسير افتراضي، حيث يحاول المبتكرون والمبدعون في المجال الفكري إقناع «المشترين» بقبول الأفكار والنتائج الجديدة الخاصة بهم. وعندما يفعلون ذلك فهم «يكتسبون سمعة»، على الرغم من أنَّ هذه ليست واردة في حقيقية «السوق». ولكن يمكننا طرح بعض التساؤلات مثل المنافسة، والعوائق، والتكاليف، والكفاءة وغيرها، حيث إنّه يشبه إلى حد كبير أي سوق. كما أنّ هذا السوق، وبطبيعة الحال، قد يكون مليئاً بالفشل» والحوافز السيئة؛ لكون الأفكار الجديدة غالبًا ما تحط من قيمة رأس المال البشري من العقيدة القائمة، وبالتالي سيتم مقاومة الابتكار الفكري، واضطهاده باسم «الردة» أو «البدعة أحيانًا»، وهي حوافز سلبية قوية، كما أنّ ضعف الحوافز الإيجابية يؤثر سلباً على الإنتاج المنتظم للمعارف».

يرى الكاتب أن عدم فشل النموذج في أوروبا سببه أنّ النخبة المثقفة في أوروبا بين عامي ١٥٠٠-١٧٠٠، قامت بتطوير ثقافة وبناء مجموعة من المؤسسات التي هي مناسبة للإبداع الفكري وتراكم المعارف المفيدة أكثر من ذي قبل؛ حيث استطاعت أوروبا إيجاد حلول أفضل لهذه الصعوبات مقارنة بالمجتمعات الأخرى مثل الصين.

ويؤكد الكاتب بأنّ الحل الأوروبي كان هو الأمثل؛ لأن النموذج عمل بشكل جيد بما فيه الكفاية لإنتاج ثقافة النخبة، والتي يمكن أن نطلق عليها «المستنيرة». وما حدث بالفعل هو أن الحوافز على حد سواء الإيجابية والسلبية في عام ١٧٠٠ كانت تحسناً كبيرا مقارنة بعام ١٥٠٠.

لمعرفة السبب، يرسم الكاتب إطارا عريضا للغاية حول كيفية إقناع المثقفين بعضهم البعض، وهو ما يحدث في سوق الأفكار. عندما تظهر عناصر جديدة في القائمة، يمكن للناس أن تختار بين البديل الجديد والمتغيرات المتنافسة، وهو هذا ما يسمى بالتطور الثقافي القائم على الاختيار. كما أن داخل كل مجتمع أفكارا، هناك تنافس على القبول؛ لأن بعض الأفكار يصبح «ثابتا» في السكان، وبعضها يصبح منقرضا، وبعضها يتعايش مع المنافسين. يأتي الكاتب ليشرح مفهوم التحيز، كيف أنّ الناس يغيرون رأيهم حول الأشياء التي نعرف، ولماذا وكيف يفعلونه؛ فآلية التحيز تقوم على الإقناع، أو السلطة، أو التقليد، أو الانسياق، أو التأطير، أو انخفاض خطر عقوبة الزندقة.

فبين «المتغيرات الثقافية» الجديدة التي وضعت نفسها بين عامي ١٥٠٠ و١٧٠٠ كانت البروتستانتية، ومركزية الشمس، والطب الكيميائي، والتشريح، والدورة الدموية، والرياضيات اللامتناهية في الصغر، وإمكانية الفراغ، والثنائية الديكارتية وأكثر من ذلك بكثير. ولكن أهمها: عصر إنتاج الأفكار التي يمكن أن نقرنها «بالتنوير». كانت هناك ثلاثة عناصر رئيسية مرتبطة بالتنوير:

- الإيمان بالإمكانية والرغبة في التقدم البشري.
- الاعتقاد (البيكونية) بأن «العلم النافع» من المفترض فعلا استخدامه، وتطبيقه على الإنتاج، الذي وضع أجندة جديدة للبحث العلمي، ويستفاد منه في تحقيق التقدم «التنوير الصناعي».
- الاعتقاد بتفوق «الحديثين» على «القدماء»، وفقدان الاحترام الأعمى للشريعة الكلاسيكية.

كما أن سوق الأفكار أنتج العديد من «التوازن في الأفكار» التي تؤثر في محتوى التحيز، مثل: قيمة «الفلسفة التجريبية» في مجال البحث العلمي، والإقناع بالنتائج التجريبية، وأهمية الرياضيات، وأهمية جمع الحقائق والبيانات وتصنيفها وتنظيمها في أشكال تسهل البحث عن «الاطراد التجريبي»، والاستقامة الدينية للبحث في الفلسفة الطبيعية.

هذه التغيرات الثقافية أعدت أوروبا لتنفيذ البرنامج التجريبي لبيكون، والتي أدت إلى الثورة الصناعية.

وكانت هذه الثقافة الجديدة رائدة في أوائل القرن الثامن عشر في بريطانيا والقارة الأوروبية الغربية وكانت ملازمة للثورة الصناعية.

يرى جويل، أنّه لكي تنجح الأسواق، وتعمل بفعالية، فإنّها تحتاج أساساً لنوع من المؤسسات التي تحدد الحوافز التي تدفع للمشاركين وضبط قواعد السوق. وكما لوحظ، فإنّ هذه الحوافز، كانت تأتي على نوعين،

إما زيادة الحوافز الإيجابية من خلال إيجاد السبل التي يمكن مكافأة المبتكرين بها، أو خفض الحوافز السلبية من خلال إضعاف القوى التي تقمع الابتكار. ورغم كل الصعاب، بين ١٥٠٠ و١٧٠٠ أنتجت أوروبا مؤسسة لفعل كل ذلك.

أوروبا ليست الأولى والوحيدة في إنشاء سوق للأفكار. ولكنها كانت الأولى في إنشاء مؤسسة دعمت سوق الأفكار، وشجعت بنشاط الابتكار الفكري الذي أدى إلى النمو الهائل في المعرفة المفيدة؛ حيث إن المؤسسة تحل المشكلة بطريقة جديدة. كما أنها وضعت الأسس لسوق أكثر كفاءة للأفكار في أوروبا وإلى كل ما ترتب على ذلك.

في أوروبا، نظمت «الموارد المشتركة الفكرية» بعد عام ١٥٠٠ من خلال المجتمع العابر للحدود من العلماء والتي تشير إلى نفسها على أنها الديموقراطية الأدبية « Republica Literaria ». وتشمل هذه المجموعة النخبة الأوروبية المثقفة، وصفوة المفكرين من: العلماء، والأطباء، والفلاسفة، وعلماء الرياضيات، وعلماء الدين، والمنجمين، وكتاب الصوفية والأكولتيست. وكانت هذه الكوكبة متجانسة نسبيًا: حيث إنهم يجيدون القراءة والكتابة، بعدة لغات، وأذهانهم منفتحة على الآخرين، كما أنهم يشتركون في العقيدة أو الخلفية الثقافية. أول ذكر لهذا المصطلح كان في عام ١٤١٧، ولكن جاء إلى جانبها في النصف الأول من القرن السادس عشر مع عمل إيراسموس وصديقه خوان لويس فيفيس، وقد بلغ ذروته في عصر التنوير. كانت المؤسسة فعالة، حتى لو لم تكن مصممة لتكون بهذه الطريقة، وكفاءتها لا يفسر طول العمر.

كانت جمهورية الآداب فوق كل مجتمع وتعرف أحياناً باسم «الكلية الخفية» والتي تشارك، وتوزع، وتقيّم المعرفة.

على هذا النحو، وفرت نوعاً من «المجتمع» لحل مشكلة الموارد المشتركة. حسب استطلاع جويل، فإن أعضاءها لا يعرفون بعضهم البعض جيداً، وكانت مستويات الثقة منخفضة نسبيًا، ولكن المعلومات تميل إلى أن تكون أقل في علاقات المجتمعات القوية. كما أنّ لجمهورية الآداب بعض القواعد في عصر التنوير، والتي تتضمن:

أن المعرفة والبيانات مفتوحة ومشتركة، وجميع موارد المعرفة، سواء الجديد والقديم، يجب أن يفحص ويقيم قبل النشر، وغيرها من القواعد.

هناك عدة أمور تفسر نجاح جمهورية الآداب. أولها، أنها كانت إلى حد كبير مستقلة عن غيرها من المؤسسات السياسية أو الدينية. وكان هذا صحيحًا حتى بالنسبة لفرنسا، حيث تتدخل الدولة أكثر من أي مكان آخر.

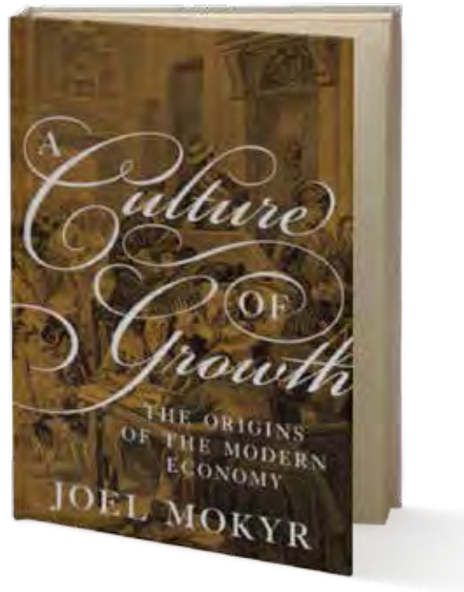

ثانياً، أن المواطنين استغلوا الانقسام السياسي في أوروبا من قبل الحكام والحد من تنظيم الدين في التدخل أو السيطرة على خلق المعرفة، وتمكين أعضائها من الانتقال من دولة إلى أخرى، ولعب قوة واحدة ضد أخرى. كما أنّ هناك بعض المكونات التي لها دور فعال مثل، الطباعة والنشر، ونمو الخدمات البريدية، وانخفاض تكاليف النقل، والرعاية التنافسية من قبل الحكام والمستثمرين وغيرها من العوامل.

أصبح سوق الأفكار مبارزة لمكافأة كبار المُفكرين والحصول على السمعة من خلال كتاباتهم العلمية. وكانت السمعة هي الحافز الرئيسي الذي حفز المبدعين لتحقيق التقدم في المعرفة. وفي سوق الرعاية، نجد المحاكم والجامعات والأكاديميات تتنافس فيما بينها لجذب أفضل وألمع العلماء لرعايتهم. وعلى جانب الطلب: جذب الأذكياء كان مسألة هاجس للحكام المحليين والوجهاء للحصول على المعلومات والمشورة والنصائح المفيدة، والدروس الخصوصية لأبنائهم؛ مما ساهم في ضعف «الحوافز السلبية».

أهمية العلم المفتوح في التنمية الاقتصادية للعالم الحديث ضخمة. والعلم مفتوح يعني أنّ المعرفة الجديدة سيتم وضعها في المجال العام، وبالتالي تكون في متناول أي شخص يُريد أن يبني عليها أو يستخدمها لأغراض التكنولوجيا. وبحلول سنة ١٧٠٠ كانت الخطوط الأساسية لـ«العلم المفتوح» بالكامل في مكان ويراعى في كل أنحاء جمهورية الآداب.

استطاعت أوروبا خلق مؤسسة أوروبية موحدة تسمح للمثقفين بالتمتع بجمهور أوسع بكثير مما كانوا سيحصلون عليه في كثير من الأحيان من بلدانهم الصغيرة. ومن هذا المنطلق، كانت أوروبا أفضل من جميع العوالم الممكنة بين الانقسام السياسي والتوحيد الفكري. وعلى الرغم من التنوع والتعددية، إلا أنّه كانت فكريًا «متكاملة» في وجود سوق أكبر أو أقل موحدة للأفكار؛ حيث إنّ المعرفة الجديدة والاكتشافات تنتشر بسرعة على القارة بأكملها، وقد اعتمدت أفكارا متفوقة في نهاية المطاف على نطاق واسع.

وفي خاتمة كتابه، يرى جويل، أنّ التغيير المؤسسي هو العنصر الأهم الذي يفسر الثورة الصناعية، وليست حقوق الملكية أو الانخفاض في تكاليف المعاملات أو الثورة المجيدة. حيث إنّ المؤسسات التي تخضع للتراكم ونشر «العلم النافع» هي الحل لهذه المشكلة المشتركة في المعرفة والتي وفرت «جمهورية الآداب» في أوروبا، وكانت أهم نتائج مجموعة الأفكار ما نُسميه بعصر التنوير. كما يركز جويل على أوروبا (في الغالب الغربية)، ويؤكد أن هذا الجزء من العالم هو الأكثر أهمية، فإنّه لا يُفسر لماذا بدأ كل شيء في بريطانيا العظمى.

كما أنه ليس من الواضح على الإطلاق أن نمو العلم في الفترة ١٥٠٠-١٧٠٠ «الثورة العلمية» أدى مباشرة إلى التغير التكنولوجي في القرن الثامن عشر. ربما كل ذلك العلم لا يهم الثورة. ولكن هذا يأخذ وجهة نظر ضيقة جدًا في العلوم لكونها تلعب دورا متزايدا في تاريخ التصنيع في أوروبا .

كما يتساءل جويل: هل يمكن أن يكون هناك ثورة صناعية دون ثقافة النمو؟ ويجيب بأنّه قد تكون هناك ثورة صناعية في أوروبا بدون جمهورية الآداب وجدول الأعمال المتغيرة من العلم، ولكن كان يمكن أن تكون لمدة قصيرة وسرعان ما تنهار بعد عام ١٨١٥ أو أي تطور تكنولوجي آخر. إن أمواج الاختراعات والتقدم التكنولوجي قد وقعت من قبل في أوروبا، وقبل في العالم الإسلامي والصين. ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفا.

الكتاب: ثقافة النمو: أصول الاقتصاد الحديث.

المؤلف: جويل موكر (Joel Mokyr)

عدد الصفحات: ٤٠٠ صفحة

الناشر:

Princeton University Press (November 2016 ,1)

اللغة : الإنجليزية

*** كاتب عُماني**

انحناء أمام المرايا: عن الذات والآخر .. لمارتن دين

رضوان ضاوي *

وُلد الكاتب - مارتين ر. دين - سنة ١٩٥٥ في -منزيكن- بسويسرا، من أب ذي أصول هنديّة مولود في -ترينداد- بكوبا، وأم سويسرية. التحق بقسم الدراسات الجرمانية ودرس علم الدين والفلسفة في جامعة بازل. ويعيش حالياً في سويسرا كاتباً وصحفياً في بازل. قام بعدّة رحلات طويلة في أمريكا والبرتغال وفرنسا واليونان وإيطاليا. ولمارتين ر. دين العديد من المؤلفات منها: ((الحدائق المتوارية)) (١٩٨٢)، و((الرجل بدون ضوء)) (١٩٨٨)، و((آبائي)) (رواية ٢٠٠٥)، و((حقيبة مليئة بالأمنيات)) (رواية، ٢٠١١).

حصل مارتين ر. دين على مجموعة من الجوائز منها: جائزة الأدب «راوريـزار» سنة ١٩٨٣ عن كتابه «الحدائق المتوارية». وفي سنة ١٩٨٨ حصل على جائزة «أرجاور» الأدبية وجائزة دائرة الثقافة الأدبية لرابطة الاتحاد الصناعي الألماني. أما جائزة مؤسسة «كُتّاب فرانكفورت» فقد حصل عليها سنة ١٩٩٠، كما حصل على جائزة مؤسسة «شيللر» السويسرية للأعمال الكاملة سنة ١٩٩٤ وعاد ليحصل عليها عام ٢٠٠٣ أيضاً، إضافةً إلى الجائزة التقديرية «لأكاديمية الفنون» في برلين، وجائزة «الفن» من مدينة برلين سنة ١٩٩٩.

جاءت فقرات كتاب « انحناء أمام المرايا: عن الذات والآخر» مرتّبة ومُعنونة على الشكل التالي: بعد المُقدمة الصغيرة التي كتبها المؤلّف، يأتي عنوان الفصل الأول وهو: «حدائق ومدن»، والفصل الثاني: «المدن الكبرى وسر الحنين»، والفصل الثالث بعنوان «إزعاج الطبيعة»، والفصل الرّابع بعنوان «أجسام الغرباء»، والفصل الخامس «أصداء الأجسام»، والفصل السادس في موضوع «دوخة الغرابة». ويختم مارتين ر. دين كتابه بفصل عنوانه: «الاختفاء التدريجي».

جعل الكاتب السويسري مارتين ر. دين مسألة «أن تكون غريباً» موضوعاً للحياة في تأمّلاته ومُشاهداته. ويحكي الكاتب في تأملاته «انحناء أمام المرايا» عن سفره في البلاد الغريبة، وكيف أدرك الآخر وفهمه، وكيف أصبح بعدها غريباً في وطنه الأم. فما الذي يُشعرُ المرءَ بأنّه غريب؟ وما تكلفة أن تكون غريباً؟ كيف يمكننا أن نفهم الغريب بصفته غريباً؟ وهل يتعلّق الأمر هنا بتثبيت للهويّة؟.

في هذا العمل، تحدّث المُؤلّف عن الحدود الفاصلة بين الذات والآخر، وقدّم ظاهرة الآخر والذات من منظور ثقافي مقارن، ومنظور اجتماعي، ومنظور سيرذاتي، وسياسي. وعالج المؤلّف ظاهرة الذات والآخر من زوايا مختلفة ومتعدّدة أهمّها: ذات-آخر، وفاعل-ضحيّة، وطبيعة-إنسان، ومدن كبرى- حدائق.

يتذكر مارتين ر. دين السيناريوهات المبكّرة في أيام الدراسة. «من أين جئت إذاً؟»، يتساءل المُعلم. «من مينتسيكن» يقول الطفل صادقاً. فيضحك الجميع. لأنّ منظر الطفل يوحي بأنّه «هندي» ولا علاقة له بمينتسيكن وسكّانها.

ولم يكتف الكاتب بسرد وتحليل تجربته الخاصّة مع الثقافات الأجنبية، بل ارتكز في عمله على أهمّ رُوّاد الدراسات الثقافية، ومجموعة من النصوص السابقة لكتّاب مشهورين، تناولوا في نصوصهم التبادل الثقافي مع الأجنبي، في نصوص عديدة. فأعمال كلّ من «توماس مان» Thomas Mann الكاتب الألماني و«إلياس كانيطي» Elyass Kanetti الكاتب الألماني من أصل بلغاري، خير مثال على رُسُل الثقافات المتنوّعة والمتعدّدة. وكلاهما حاصلان على جائزة نوبل للآداب. وقام الكاتب باستقاء أجوبة على أسئلته من خلال مؤلفات هؤلاء الكُتّاب، فتحدّث عن مؤلفاتهم وأعمالهم، وكيف قاموا بالانحناء أمام مرايا عكست صورة أكثر دقّة لذواتهم. فالغريب يوجد فينا، ويوجد حولنا، وفي كلتا الحالتين ينبغي أن يكون إثراء لذواتنا.

عمل مارتين ر. دين على إعادة صياغة نصوص هؤلاء الكتّاب والاقتباس منها، واستغلالها من أجل تحرير تأمّلاته عن تقاطع الشمال مع الجنوب. ومن بين المرايا التي يحاول المُؤلّف معرفة نفسه فيها، مرآة الكاتب «توماس مان»؛ فقد جاءت والدة توماس مان من الجنوب المُشمس، وأبوه جاء من ليبيك Lübick. وقد تأثّر «توماس مان» بهذا التعارض وعمل دائماً على تقديمه وعرضه والتفكير فيه بكل إمكانياته. غير أنّ الأمر بالنسبة للكاتب يمكن النظر إليه من زاوية معكوسة: أمٌّ من الشمال وأبٌ من الجنوب.

وربما لأنّ الأجنبي يكون بين الغرباء أقل غيريّة، يرحل مارتين دين إلى باريس، ولندن، والهند، واليابان، حيث يلتقي في كل مكان بالغرباء؛ فكان اللّقاء في باريس لقاءً سعيداً، وفي لندن كان التلاقح مع الثقافة الأجنبيّة مؤثّراً، أمّا في الهند فقد كان اللّقاء مع الغرباء مُنفّراً، وفي اليابان كان هذا اللقاء قويّاً وشديداً.

وإلى جانب كلّ هذا التفاعل النفسي والرّوحي، نشأت صور قويّة للثقافة الأجنبيّة وبورتريهات للمدن وللبلدان. إنها عمليّة السفر إلى البلدان الغريبة بامتياز. وقد حوّل مارتين دين هذا اللّقاء إلى لقاء ثقافي، واقتبس من رحلة «إلياس كانيطي» إلى المغرب أهمّ القواعد والأسُس التي يمكنه الاستناد عليها في رحلته مع الثقافات الأجنبية، من أجل فهم حقيقي وواقعي لها، بعيداً عن كلّ الصور النمطيّة التي تحفل بها معظم الكتابات الثقافيّة التي تناولت الغريب والأجنبي. يكتب «مارتين ر. دين»: «كنت دائماً هناك. كنت على الدوام رحّالة مُتعباً. لا أحد من المغامرين دوّن مذكراته عن نفسه أثناء عبوره الصحراء، أو بحث في الطقوس والعادات عند الشعوب المحلية. سافرت، لكي أرى كيف يعيش الآخرون في بلدان أخرى، سافرت كثيراً بدافع الفضول ومن أجل الإفلات من ضغط التصنيفات السابقة».

كان «إلياس كانيطي» قد أقام سنة ١٩٥٤ ثلاثة أسابيع في مراكش وانفتح على الغريب وبحث في رحلته إلى المغرب عن الغريب ووجده في مراكش من خلال أصوات الرواة والمغنين في ساحة جامع الفنا الشعبية وأصوات المكفوفين والأغاني الشعبية. يقول مارتين ر. دين: «كان (كانيطي) يبحث عن الآخر لكي يتبدّل. سألت نفسي أثناء القراءة عما إذا كان قد سافر إلى مراكش«الرائعة» لكي يستمع للرواة ولكي يقترب من نفسه كـ«مشرقي»؟».

يعتمد اهتمام مارتين ر. دين بالآخر على القناعة بأنّه: لا يمكن الاستغناء عنه في تحديد الذات. ولهذا يراقب مارتين ر. دين بقلق كيف ذُبلت القُدرة في العصر الحديث على احتمال الغريب الذي يعرّفه على أنّه «مختبر للأصوات، نرفع فيه نحن كلّنا أصواتنا- ومن الصدى فقط يعرف بعضنا بعضنا الآخر». وكان الكاتب قد افتتح مُؤلّفه بجملة مهمّة يقول فيها: «إنّ الغريب

في طريقه إلى الاختفاء». يتحدث مارتين ر. دين هنا عن خسائر عالمنا المعاصر؛ فالأجنبي الذي يعتبره مارتين ر. دين العاصمة الفعليّة للحداثة، هو مهدّدٌ بالاختفاء في ظل عمليات العولمة. ولكي نُحافظ عليه يجب أن نُصرّ على بقاء الغريب غريباً، ويجب علينا تحمّل تبعات ذلك، فننسى قبل كل شيء العمل على جعل هذا الغريب مفهومًا بالنسبة لنا.

ويذكر مارتين دين قصّة عارضة أزياء شهيرة أرادت ذات يوم شراء حقيبة من محلّ تجاري في زيوريخ، فقالت لها البائعة بأنّ ثمن الحقيبة سيكون حتماً غالياً عليها. استعان الكاتب بهذه الحادثة لكي يشرح كيف يصبح مرض جنون الارتياب غُرفة يلتقي فيها الأبيض والأسود: فيطبعه عدم الطمأنينة، والشكّ، والأحكام الظالمة، والنُّفور.

يُمكننا أن نكتشف بسهولة بأنّ «مارتين ر. دين» لم ينظر إلى الحدّ بين الذات والآخر على أنّه خطٌ فاصل. كما أنّ الصوّر النمطيّة التي تملأ الكتابات الثقافية عن الشعوب الأخرى، ليست هي نقطة الانطلاق بالنسبة للكاتب، بل هي نتيجة للظاهرة: ظاهرة الذات والآخر. فقد ظهرت مجموعة من الدراسات في السنوات الأخيرة اهتمت بهذا الموضوع باعتباره يندرج ضمن ما يُسمّيه المتخصّصون بدراسة الغريب أو بعلم الغريب. وترتبط به مجموعة من المفاهيم المهمة في علم الاجتماع والدراسات الثقافية مثل الهويّة والاختلاف والذات والغريب.

يبدو لي بأنّ نصوص مارتين القوية بشعريتها في متناول القارئ؛ لأنّها عبارة عن دعوة للبحث في الهويّات المختلفة للذوات وامتحان للتفكير. وكان المؤلفُ قد استعمل تجربته ومعرفته التاريخيّة والفلسفية لكي يُلقي نظرةً نقدية على الحاضر، ويتجنّب كل تشاؤم ثقافي رخيص.

وأعتقد بأنّ الكاتب قد نجح في التأكيد على وجود تحوّلات في الإبدال المجتمعي في ضوء استغراق الشباب في هواتفهم الذكيّة. ويقول المراقبون إن التعامل الكثيف للشباب مع الهواتف الذكية والمواقع الاجتماعية يكون سبباً في ضعف اندماج الشباب في المجتمع والحياة العامة.

في فصل «أجسام الغريب وصدى الأجسام» يثبت مارتين دين بأن «تخريج وظيفة الأنا تُغيّر القدرة على إعطاء الأولويّة والاهتمام بالآخر». هكذا يصبح اللّقاء مع الغريب دائماً تواصلاً مع العدو، وقُدرة على احتمال الآخر بسهولة». ففي مراكش، حيث فشلت لغة كانيطي، دخل الحي اليهودي القديم والتقى هناك بذاته: «لا أريد مُغادرة هذا المكان، كنت هنا قبل مئات السنين. ولكنني نسيت الأمر، والآن استحضرت كل شيء مرة أخرى،

لقد وجدت كثافة الحياة مكشوفة وحرارتها التي أحسها بنفسي. كنت في هذه الساحة، لما وقفت هناك، أعتقد أنّ هذه الساحة هي أنا نفسي».

ويتساءل الكاتب عما إذا كان هذا التواصل مع الآخر «يذبل بالقياس لمدى تطور الحريّة الشاملة». هنا ينشأ القلق الذي أثار مارتين ر. دين، أي حين تأتينا الشجاعة فنستثني الآخر ونعامله على أنّه عدو، أو نعمل على إخفائه عبر الاندماج والذوبان. ولهذا تُحيي الغرابة والتغريب المُعاشَة على المستوى الفردي التعارض الاجتماعي والنّفاق السياسي.

تحدّث «مارتين ر. دين» عن هذا الصراع انطلاقاً من تجربته الذاتيّة؛ فأصوله المزدوجة أثّرت فيه وفي كتاباته. حيث يعكس «دين» الآخر في علاقة الصراع مع الذات على مستويات مُختلفة، فيتذكّر الطفولة الخاصّة به باعتبارها «أماكن للحنين»، ويتذكّر نفسه في زياراته في المدن الكبيرة، باريس أولاً، حيث تعرّف على « انفتاح العالم». في هذه الآثار يدور مركز حياة مارتين: أبواه الاثنان، اللّذان اشتغل عليهما ثقافيّاً في مؤلفاته، وكلاهما أعطاه قطعة من الغَيريّة، وعبرها أخذت مصطلحات مثل وطن وبلد أم معنى مزدوجاً يصعب التقاطه.

هكذا خلق الكاتب قوّة دافعة لكتاباته؛ فناقش مُعاملة المجتمع الاجتماعية والسياسية للغريب، الذي يتأرجح بين الرفض والتطويع. ويبدو تأثر الكاتب بإلياس كانيطي الحاصل على جائزة نوبل للآداب، كبيراً في كتابه. يقول مارتين ر. دين: «أراد كانيطي المثقل مبكراً في الحياة بلغات مختلفة وجغرافيات، الاحتفاظ بالغريب. إنّه يرفض لنفسه أية ترجمة إلى الأصل. يريد أن يصبح هو نفسه غريباً. حين يعود من مراكش يستطيع أن يواصل الكتابة».

في مقدمة كتابه يقتبس الكاتب مارتين ر. دين مقولة لـ مارتين تيودور ف. أدورنو: «الغيريّة في العالم هي لحظة فن، من يدركها على أنها شيء آخر غير الآخر، فإنه لم يدركها أبداً». هكذا يؤمن مارتين بأنّه من الصحّي الاعتراف بأن الآخر جزءٌ من ذواتنا، بدل منحه «مجالاً من الارتياب»، وسجنه بين الإقصاء والدفاع عنه؛ فمفاهيم مثل الهوية، والطابع، والأسلوب، هي مفاهيم يلتقي فيها ما هو ذاتي بما هو غريب: «الهوية ليست شيئاً آخر غير غرفة صدى، فيها يتراسل الذّاتي الخاصّ مع الأجنبي الغريب ويلعب الاثنان في واحد».

ويحاول المؤلّف على ما يبدو دراسة عناصر الحجاج لهذا اللعب المضاد والمثير انطلاقاً من تجربته الخاصة. لقد أسّس مارتين ر. دين انطلاقاً من تجربته الذاتيّة معنى للغرابة في الفن والثقافة الذي يجب إعادة اكتشافه من جديد. فالثقافة تعمل على المشاركة بشكل عام في النقاشات الدائرة حول السياسة وحول المجتمع. وهي نقاشات تعود جذورها إلى التجربة الذاتيّة عند مارتين ر. دين الذي يتذكّر طفولته والحدائق التي يعتبرها «أماكن الحنين»، ويتذكر زياراته للمدن الكبرى مثل باريس التي اعتبرها» انفتاحاً على العالم».

وينتهي مارتين ر. دين إلى القول بأنّه «بواسطة غيريّة الآخر أعرف أنا غيريّتي الخاصّة». فهما مفهومان متداخلان مع بعضهما البعض، ويكمل كل واحد منهما الآخر. والغرابة لا تبدأ خارج الذات، بل هي موجودة في الإنسان نفسه.

Martin R. Dean, Verbeugung vor Spiegeln: Über das Eigene und das Fremde, Verlag Jung und Jung, Wien/ Österreich, 1. Auflage, 104 ,2015 Seiten.(Deutsch) .

عنوان الكتاب: انحناء أمام المرايا: عن الذات والآخر

المؤلف: مارتين ر. دين

الناشر: يونج ويونج، فيينا/النمسا، الطبعة الأولى، ٢٠١٥.

عدد الصفحات: ١٠٤.

لغة الكتاب: الألمانية.

* مترجم وباحث مغربي في الدراسات الألمانية

المحتوى المتعدد : الجراثيم في داخلنا ونظرة أوسع للحياة
لإد يونغ

مُحمَّد السَّماك *

يتفكر القارئ المسلم للقرآن الكريم في الآية ٢١ من سورة الذاريات التي تقول: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون».

ويقوده تفكره إلى التساؤل: هل المقصود بذلك هو بصمة العين التي تختلف من إنسان إلى آخر؟ والتي يمكن من خلالها - من خلال العين - أن يسبر الطب غور بعض الأمراض الداخلية قبل استفحالها؟

أم المقصود هو بصمة الأصبع التي يتميز بها كل إنسان عن كل الناس؟

أم المقصود هو الدماغ الذي يتمتع بقدرات هائلة لم يستطع العلم حتى اليوم تحديدها أو حصرها؟ أم المقصود بذلك، الجهاز العصبي للإنسان الذي، كما يقول العلماء، لو ربطت أطراف شبكة الأعصاب في جسم إنسان واحد على شكل حبل مترابط، لكان بإمكانها أن تلف الكرة الأرضية كاملة.. وربما أكثر من مرة واحدة.

أم المقصود بذلك هو كل هذه الأمور مجتمعة؟

غير أنّ الكتاب الجديد عن الميكروبات والجراثيم والطفيليات التي تعيش فينا وتعيش معنا، يقدم بعداً آخر أو إجابة جديدة للدعوة القرآنية إلى التفكر في النفس، ليقدم حقائق علمية جديدة أو غير معروفة من عامة الناس، وحتى من كثير من العلماء والخبراء والاختصاصيين.

وكما قال المؤلف لقارئ كتابه أنّه وهو يقرأه، (ونقول أيضاً لقارئ هذه المجلة وهو يقرأها الآن) إنك أثناء قراءتك هذا النص ومن حيث لا تدري فإن مليارات من الميكروبات وتريليونات من الجراثيم المجهرية تتكاثر وتتضاعف في وجهك، وفي يديك وفي أحشائك الداخلية، وأنك مع كل عملية تنفس ومع كل حركة تقوم بها، تطلق إلى الهواء ما يعادل ٣٧ مليون جرثومة في الساعة.

ويقول المؤلف أيضاً إنه مع كل غرام واحد من الطعام الذي تتناوله، فإنك تتناول معه أكثر من مليون جرثومة.

فتصوّر إذا أكلت كيلوغراماً واحداً فقط من الطعام، كم مليار جرثومة مجهرية تتناول معه؟

ويقدم المؤلف الإحصائية العلمية المذهلة التالية؛ وهي أنّ ما يقارب من نصف خلايا الإنسان ليست خلايا إنسانية!! وهذه الحقيقة تطرح فلسفياً السؤال التالي: من نحن إذن؟ وهل الأنا.. أنا؟ أي أين يبدأ الأنا وأين ينتهي؟

تتكون الخلايا الإنسانية من تلاقح بويضة واحدة مع دي.إن.إيه من الأب والأم. وتبدأ الجراثيم المجهرية بالاختلاط مع هذه الخلايا الإنسانية حتى قبل أن يبدأ الجنين بالتنفس، وقبل أن تطبع الأم قبلتها الأولى على وجه جنينها، وقبل أن يتذوق الجنين طعم حليب أمه.

ويؤكد المؤلف بعد ذلك الحقيقة المذهلة التالية، وهي أنّ خلايا الإنسان لا تستطيع أن تبني جسماً سليماً وصحياً من دون مساعدة وثيقة من كل هذه التريليونات من الميكروبات المهاجرة التي تشكل نصفنا الثاني!!

من هنا السؤال الكبير مرة ثانية: ما معنى الأنا؟

تقول الأدبيات الطبية المتداولة أن جهاز المناعة يتولى حماية الإنسان من خلال تحديد مواقع ومكافحة أي عناصر دخيلة متسللة إلى جسم الإنسان، غير أنّ الحقيقة العلمية تؤكد أن قسماً من جهاز المناعة يتشكل هو ذاته أيضاً من الميكروبات، وأنّ هذه الميكروبات تقوم بإدارة عمله ولو جزئياً.

حتى عندما يكون الواحد منا منفرداً بنفسه، فإنّه لا يكون وحيداً أبداً. فنحن عندما نأكل، تأكل الميكروبات معنا، وعندما نسافر، تسافر معنا، ولكن عندما نموت تقوم الميكروبات بالتهامنا!!

هذه الحقائق في الذات الإنسانية من شأنها أن تعيد تعريفنا لذاتنا، وفهمنا لأنفسنا وللكون من حولنا. ولذلك فإنها تقدم جواباً جديداً على الدعوة القرآنية إلى التفكر في النفس وما فيها من كوامن الأسرار التي خلقها الله سبحانه وتعالى فينا.

إنّ الانفتاح على هذا الأفق العلمي الجديد يغير من نظرتنا إلى أجسامنا وفهمنا له، كما يغير من نظرتنا إلى الكائنات الأخرى، وإلى الطيور في الفضاء، وإلى الأشجار في الأرض، بما يستجيب إلى الدعوة القرآنية إلى التفكر في أنفسنا وفي ما خلق الله من كائنات نرى بعضها ولا نرى أكثرها!! ولكننا نعرف أنّها موجودة لنا، وموجودة فينا.

في الكتاب الذي يتضمن حتى في حواشيه الموسعة معلومات جديدة ومذهلة عن هذا العالم غير المرئي الذي يشكل أساساً في وجودنا وفي حياتنا، يقول المؤلف أد يونغ إنّ علم دراسة الجراثيم بدأ مع العالم الهولندي انتون فان ليونهوك الذي كان أول من اكتشف هذه الجراثيم وسماها «الحيوانات المجهرية». وقد وجدها في كل مكان: على بشرة الإنسان، على الخشب، وعلى الفراء وحتى داخل العيون. وفي عام ١٧٨٣ استخرج يونغ قطعة صغيرة من ترسبات على أسنانه وتفحصها تحت المجهر، ووجد فيها أعداداً هائلة من الكائنات الحية، تتحرك بانتظام!!

يومها كان تقدير العالم الهولندي - وقد ثبت فيما بعد أن تقديره كان صحيحاً - هو أنه توجد كائنات مجهرية (جراثيم) تسبح وتحلق في فمه أكثر عدداً من سكان هولندا!! غير أنّ دراسته في ذلك الوقت لم تأخذ حقها بالاهتمام لأنّ رؤية هذه الكائنات المجهرية لم تكن متوفرة لبقية الناس.

لقد انتظر العالم مائة سنة أخرى، أي حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما يقول المؤلف، حتى يدخل العلم مرحلة جديدة ومثيرة أيضاً في علم الجراثيم، وذلك عندما ربط علماء مثل لويس باسير، وروبرت كوش وجوزف ليستر، بين الجراثيم وبعض الأمراض التي تصيب الإنسان، وبقدرة الجراثيم على التسبب في الأمراض الوبائية المعدية. وهكذا تكونت « نظرية الجراثيم» وأصبحت العدسة التي ينظر العالم من خلالها إلى الإنسان: صحته ومرضه، بل وإلى حقيقته المادية!

تقوم النظرية الصحية العامة على أساس مكافحة البكتيريا -الجراثيم الميكروبية- ولكن هذه الميكروبات كامنة فينا؛ فنحن لا نعيش من دونها، ولا يمكن لنا أن نتخلص منها، بل ليس من مصلحتنا أن نتخلص منها. صحيح أن قليلاً من هذه الكائنات يسبب لنا الأمراض، غير أن الصحيح أيضاً هو أن حفظها ضروري وأساسي لحياتنا، بل إنّها أساسية حتى نكون نحن من نكون.

ومع تطور الأجهزة الإلكترونية في القرن العشرين، توسع العلم في سبر غور أسرار هذه الكائنات الكامنة فينا. ومن العلماء الذين برعوا في ذلك كما يقول المؤلف، نورمان بيس الذي فتح أبواب البحث العلمي في أسرار الكائنات المجهرية على مصراعيه.

ففي عام ١٩٩٩ جدد عالم الجراثيم دافيد ريلمان تجربة العالم الهولندي انتون ليونهوك، فأخذ قطعة من الترسب حول أسنانه ودرسها تحت المجهر الإلكتروني المتطور هذه المرة، ليكتشف وجود كائنات جديدة لم يشاهدها سلفه. وفي عام ٢٠٠٥ اكتشف العالم ريلمان أيضاً ٤٠٠ فصيل جديد من البكتيريا في أحشاء الإنسان لم تكن معروفة من قبل.

ووجد أنّ الكائنات المجهرية التي تعيش في الأمعاء الدقيقة هي غير تلك التي تعيش في نهاية الأمعاء الغليظة. حتى في يدي الإنسان، فإنّ سدس الكائنات المجهرية فقط التي تعيش في كف اليد اليمنى تشبه تلك التي تعيش في كف اليد اليسرى من الإنسان نفسه!!

وفي الطبيعة فإنّ الكائنات الجرثومية التي تعشعش في حقول العنب -الكرمة- مثلاً في مزرعة ما، تختلف عن تلك التي تعشعش في مزرعة متاخمة لها وذلك لاختلاف التربة في هذه المزرعة عن تلك في المزرعة المقابلة، تماماً مثل اختلاف الكف الأيمن عن الكف الأيسر.

وتؤكد دراسة الدكتور يونغ، وهو نفسه عالم جراثيم، أنّ الخلايا الإنسانية والخلايا الجرثومية تعتمد على بعضها بشكل مذهل وإلى حد التكامل. ويفسر ذلك بقوله إن الإنسان وهذه الكائنات الحية تطورا معاً، فنحن نوفر لها المأوى، وهي تقوم بالعمل، بل بالإدارة- على حد قوله-

إن الجينوم الإنساني يتألف من ٢٥ ألف وحدة. أمّا مجموع وحدات جينوم الكائنات المجهرية الموجودة داخل جسم الإنسان فتبلغ ٥٠٠ مرة أكثر، أي ما يعادل ١٢ مليون ونصف المليون وحدة!! فهل يفسر ذلك ولو بعض الإجابة على الدعوة القرآنية للتفكّر في النفس؟

من أجل ذلك يؤكد المؤلف في كتابه على حقيقة مذهلة أخرى، وهي « أن أجسامنا تتكون، ويعاد تكوينها باستمرار من خلال البكتيريا الموجودة فينا»، حتى أنه يذهب إلى حد القول «أنا لا احتوي على كائنات مجهرية؛ إنني كائن من مجموع هذه الكائنات المجهرية».

ولكن ليست كل هذه الميكروبات والجراثيم المجهرية صديقة للإنسان ومتكاملة معه. لقد تمكنت فصائل عديدة منها من الاستقواء على المضادات التي أنتجها الطب حتى الآن. وقد أثارت هذه الظاهرة قلق منظمة الأمم المتحدة التي قررت ربما للمرة الثانية

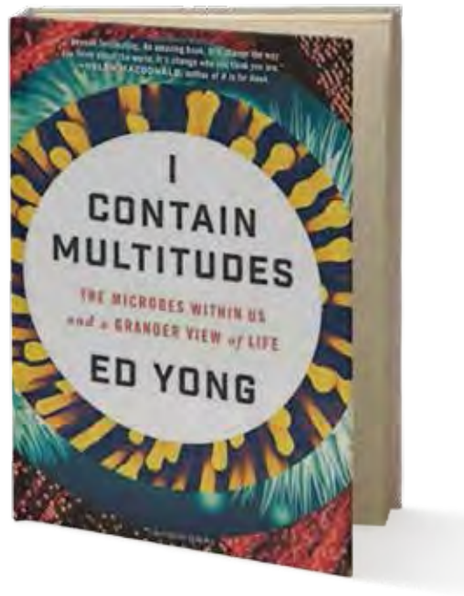

في تاريخها، أن تضع هذه القضية الطبية في مقدمة أولوياتها نظراً لانعكاساتها الخطيرة على الإنسانية جمعاء. وتؤكد الإحصاءات العلمية أنّ الأمراض التي تسببها البكتيريا، تقضي سنوياً على حياة ٧٠٠ ألف إنسان. وتتوقع الدراسات العلمية أن يرتفع عدد ضحايا البكتيريا من بني الإنسان في عام ٢٠٥٠، إلى ١٠ ملايين شخص سنوياً.

من هنا كان التركيز العلمي على السؤالين الكبيرين: السؤال الأول هو كيف تمكنت البكتيريا من الاستقواء على المضادات التي أنتجها الإنسان؟ وكيف قامت بتوريث الجيل الجديد من البكتيريا بالمناعة الذاتية ضد هذه المضادات؟

أمّا السؤال الثاني والمترتب عن الأول، فهو: ما هي أخطار النتائج المترتبة على هذه التحولات في قدرات البكتيريا ومقاومتها للمضادات؟ وكيف سيتعامل الإنسان (والطب تحديداً) معها؟

للإجابة عن هذين السؤالين، توجه العلماء إلى دراسة بكتيريا الغابات والحقول للبحث عن مضادات جديدة؛ ذلك أنه من دون هذه المضادات (الجديدة) فإن أي عملية جراحية، أو حتى عملية ولادة، يمكن أن تعرض الإنسان لخطر الإصابة بالتهابات قاتلة!

صحيح أنّ المضادات الحيوية تغير من طبيعة انتشار وعمل الميكروبات في جسم الإنسان، وعلى جسم الإنسان، وحول جسم الإنسان، وإذا كانت مهمة هذه المضادات القضاء على البكتيريا المسببة للمرض، فإنها في الوقت ذاته تحفز هذه الحيوانات المجهرية على تطوير جهاز المناعة لديها بما يؤدي إلى إنتاج بكتيريا متفوقة على المضادات ومعطلة لدورها ولفعاليتها. وهنا مصدر الخطر على الحياة الإنسانية. وهو اليوم يحتل موقع الصدارة في الاهتمامات الطبية الجرثومية.

وأملاً في الوصول إلى آلية إنسانية جديدة تتفوق على آلية المقاومة الجرثومية، فإن العلماء يلجؤون إلى دراسة البكتيريا في الطبيعة (أي خارج الدائرة البشرية المباشرة) لعلهم يجدون ضالتهم المنشودة، فهل يُوَفقون؟ إن مستقبل صحة الإنسان يتوقف إلى حد بعيد على الجواب عن هذا السؤال!!

إنّ البكتيريا المقاومة للمضادات تفتك سنوياً بأكثر من ٧٠٠ ألف إنسان. وفي عام ٢٠٥٠ قد يرتفع عدد الضحايا حسب دراسات منظمة الصحة العالمية إلى ١٠ ملايين إنسان إذا لم يتمكن العلم من الكشف عن مضادات فعالة جديدة.

ولقد أكدت الدراسات العالمية التي أجريت في عام ٢٠١٤ أنّ ٦٠ بالمائة من البكتيريا «الجديدة» التي عثر عليها في أحشاء المرضى، غير قابلة للعلاج بواسطة البنسلين، وأنّ ٢٥ بالمائة منها على الأقل تتمتع بقدرة على مقاومة كل أنواع المضادات المعروفة.

ويعتقد العلماء أنّ السبب الرئيس وراء ذلك هو الإفراط في استخدام المضادات الحيوية على الإنسان وعلى الحيوانات التي تؤكل لحومها فيما بعد.

فقد تضاعفت ٥٠ بالمائة نسبة تناول المضادات الحيوية بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠١٤. وفي تقديرات البنك الدولي التي نشرت في شهر سبتمبر - أيلول ٢٠١٦ فإنّ الالتهابات الجرثومية التي تصيب الإنسان قد ترتفع تكاليفها إلى ما بين ١،١ بالمائة و ٣،٨ بالمائة من الدخل العالمي.

وتشير هذه الأرقام إلى حجم القضية التي بدأت تحتل سلّم الأولويات في الاهتمامات العالمية.

قديماً قال الفيلسوف سقراط « اعرف نفسك» . يومها لم يكن سقراط يعرف شيئاً عن الميكروبات والجراثيم والفيروسات وسائر الكائنات المجهرية الأخرى . كان يتحدث عن النفس الإنسانية. أما هذا الكتاب فإنه يتحدث عن الجسم الإنساني. أما علاقة الجسم بالنفس فذلك موضوع آخر.

الكتاب: المحتوى المتعدد: الجراثيم في داخلنا ونظرة أوسع للحياة

Contain Multitude: The Microbes within us and a Grander view of life

اسم المؤلف : إد يونغ Ed Young

تاريخ النشر: ٢٠١٦

عدد الصفحات : ٣٣٥

اللغة: الإنجليزية

* مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي

تدخلات محفوفة بالمخاطر: مجلس الأمن وسياسة الفوضى .. لهارديب سينغ بوري

فينان نبيل *

تبلورت فكرة هذا الكتاب مع بداية الدورة السابعة لعضوية الهند الدائمة في الأمم المتحدة عام ٢٠١١-٢٠١٢. ويخلُص مؤلفه إلى أن استخدام القوة- بتفويض مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة أو بدونه- أسفر عن الكثير من التداعيات غير المقصودة، والتي كانت- في معظم الحالات- كارثية. وقد يكون الاستثناء الذي يتم الاستشهاد به على إنجاز المنظمة الدولية هو قرار التدخل في كوسوفا عام ١٩٩٩، حينما شن حلف الناتو ضربات جوية بدون إذن مجلس الأمن، ونجح في وقف التطهير العرقي بحق المواطنين الألبان.

جاء صدور هذا الكتاب في لحظة محورية بالنسبة للأمم المتحدة، والنظام العالمي ككل؛ ففي ظل عالم يموج بالقلاقل والنزاعات، ويحفه قدر كبير من المخاطر وعدم الطمأنينة. يتناول الكتاب قرارات مجلس الأمن خلال اللحظات الحاسمة في العصر الحديث، وكيف أثر سلوك الدول الأعضاء على أمن العالم واستقراره؟ وكيف كان التدخل في أغلب الأحيان يسبق الدبلوماسية الوقائية والوساطات؟ مما يدفعنا إلى التفكير في الهدف الأول الذي من أجله تأسست هذه المنظمة الدولية في سان فرانسيسكو(١٩٤٥) والتي كانت أحد أهدافها الرئيسة نزع السلاح، والحفاظ على حقوق الإنسان، ويدفعنا للتساؤل حول وكيفية إصلاحها لتواكب التحديات التي نواجهها في الحاضر في ظل المتغيرات العالمية.

يكشف» هارديب سينغ بوري» النقاب من خلال عمله كدبلوماسي متميز وممثل دائم للأمم المتحدة في جينيف(٢٠٠٢ -٢٠٠٥) عن عمليات التدخل في صنع القرار فيما يخص التدخل العسكري في مجلس الأمن. يوضح الكتاب كيف تمّ اتخاذ القرار غريب الأطوار، باستخدام القوة في ليبيا، ويسلط الضوء على الجدال غير المدروس من جانب بعض أعضاء المجلس الدائمين.

«يوضح كاتب» تدخلات محفوفة بالمخاطر «كيف أنّ بعض الحالات التي استُخدمَت فيها القوة مؤخرًا- ليس فقط في ليبيا ولكن أيضًا في سوريا واليمن والقرم، فضلا عن مغامرة الهند في سريلانكا خلال ثمانينيات القرن الماضي- خلفت وراءها خرابا مدمرا، يكشف « تدخلات محفوفة بالمخاطر» رؤية تشريحية لثورات الربيع العربي، وتحليلا عميقا لصنع القرارات المسؤولة عن الوضع الخطير السائد، واستخدام القوة العسكرية وتسليح المتمردين، وما ترتب عن ذلك من التشرد والتهجير. كشف المؤلف اللثام عن الخلفيات المريبة خلف قوات حفظ السلام الدولية، وحذر من التسليح غير الرشيد للمتمردين وتفويضهم لاستخدام القوة منذ غزو العراق ٢٠٠٣ مما أدى إلى ترسيخ وجود جماعات وحشية مثل داعش.

يستند هذا الكتاب على رؤية المؤلف «كشاهد عيان»، حيث يقدم لنا تفاصيل تبادل الأدوار بين الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن (روسيا - فرنسا- الصين-أمريكا- المملكة المتحدة) ولكل منها حق النقض (الفيتو) على قضايا التدخل بالقوة في منطقة الشرق الأوسط.

يؤكد المؤلف أيضا على أن الهند حذرت من مغبة تغيير النظام في ليبيا وسوريا، ويرى أن الهند لو أصبحت عضوا دائما في مجلس الأمن لأحدثت فارقا كبيرا جنبا إلى جنب مع غيرها من الدول الطامحة في عضوية دائمة بمجلس الأمن كالبرازيل وجنوب إفريقيا.

ويقدم الكاتب أمثلة لاتخاذ قرارات باستخدام القوة، منه القرار الذي اتخذه جميع أعضاء مجلس الأمن في الشأن الليبي، فقد تم تبرير القرار باعتبار القذافي ديكتاتورا يحكم بلاده منذ عام ١٩٦٩ بشكل دموي، وأنه يعمل على تهديد معارضيه بالتصفية الجسدية، وهكذا أصبحت هذه الدول - مع وجود قدر من الصعوبات- قادرة على الاتفاق (سواء بالموافقة الصريحة أو الامتناع عن التصويت) بشأن التدابير الجوية لحماية السكان المدنيين في ليبيا، والتقطت دول حلف الأطلسي هذا التفويض (قرار مجلس الأمن ١٩٧٣) وجعلت بني غازي مؤمنة بشكل فعال، ثم تطور الوضع، وتم إعلان الهدف الحقيقي وهو إجبار «القذافي» على التخلي عن السلطة من خلال الهجمات الجوية المتواصلة على العاصمة طرابلس وغيرها من معاقل النظام، ودفع هذا الوضع عددا من مستشاري القذافي ومساعديه إلى الفرار من العاصمة إلى أن تم قتل القذافي نفسه يوم ٢٠ أكتوبر من قبل الليبيين بعد محاولته الهروب إلى سرت في عملية هزت الصين وروسيا، وأفاقت واشنطن وباريس ولندن وفي غضون أيام على انتزاع تفويض مجلس الأمن لاستخدام القوة في ليبيا، ولكن حلف شمال الأطلسي تجاوز في تنفيذ التفويض المحدود الذي منحه له مجلس الأمن لحماية المدنيين الليبيين مما أدى إلى عواقب وخيمة.

يسوق الكاتب مثالا آخر فيما يتعلق بالشأن السوري، استطاعت الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن حشد مواقف مشتركة بشأن التدخل في سوريا بالقوة، والتي قد كانت تفجرت فيها المعارضة ضد النظام الديكتاتوري الذي يحكمها، وأيضا أدى هذا التدخل إلى تدهور الوضع في سوريا وتشريد وقتل مواطنيها. بوري على قناعة بأن تدخل قوات دولية إلى أزمات سياسية داخلية يؤدي إلى نتائج مريعة. يتصاعد الحرج من عجز الأمم المتحدة عن بذل المزيد من الجهود لمساعدة السوريين بتوفير الإغاثة الإنسانية بتمويل كاف للبعض داخل البلاد.

وعلى الرغم من الخلافات بين الدول الأعضاء إلا أنهم حريصون على إخفائها من أجل تحقيق التوافق نحو قضايا عديدة، فلقد اتحدوا على الاتفاق النووي مع إيران عام ٢٠١٥، ويبدو أنهم اتجهوا نحو تسوية مؤقتة بشأن أزمة أوكرانيا، والاتفاق حول التحديات الأمنية المتعددة في إفريقيا عن طريق الدخول في حوار مع الاتحاد الإفريقي، إلا أنّهم تشاركوا في الحفاظ على السيادة المشتركة خالصة لهم في مجلس الأمن وتركوا

الكثير من الإحباط للهند والتي برزت بوصفها أكثر الدول المرشحة (من الناحية الاقتصادية والسياسية) للحصول على مقعد دائم في مجلس الأمن، فضلا عن علاقتها الوثيقة والنشطة بالولايات المتحدة في مواجهة الصين.

تحدث الكاتب عن دور الأمم المتحدة «الصامت» في الحرب باليمن، وكيف ساعدت القوى الغربية، بشكل جيّد، المملكة العربية السعودية في التستر على مسارات الحرب الكارثية؟ مشيرًا إلى أنّ اليمن في دائرة الاستهداف السعودي، فمنذ بداية هجوم قوات التحالف التي تقودها السعودية على اليمن، قتل أكثر من ٦٠٠٠ شخص، نصفهم من المدنيين، كما دمرت المنازل والمستشفيات والطرق والمدارس ومخيمات اللاجئين. ونتيجة لهذه الحملة العسكرية، تسببت في مجاعة كبيرة للسكان اليمنيين، وقد نزح نحو ٢,٥ مليون شخص.

ويرى الدبلوماسي الهندي هارديب، أنّه وعلى الرغم من أنّ التدخل العسكري لقوات التحالف التي تقودها السعودية، لم تحقق نجاحاً حتى الآن، فقد انضم إليه الجهاديون السنة أيضاً، ما يعد انتهاكاً للقانون الإنساني الدولي. وذكر أنّ بيتر موير، رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر، بعد زيارة للبلاد في أغسطس من العام الماضي، لاحظ بدقة كارثة إنسانية خطيرة: «واصفا الوضع في اليمن بعد خمسة أشهر من التدخل بالقوة، وكأنّها تبدو سوريا بعد خمس سنوات من الحرب-.

يتساءل الدبلوماسي هارديب: هل سيكون الوضع أفضل في اليمن، وكذلك في دول أخرى في المنطقة، إذا لم تتدخل القوى الغربية في السياسة الداخلية لهذه الدول؟ ويقول هارديب، إنّه في محاولة لإعادة حكومة هادي، و«منع نمو النفوذ الإيراني في المنطقة عن طريق إضعاف «الحوثيين»، تم إطلاق عملية «عاصفة الحزم»، الطويلة والمكلفة والمتسرعة -على حد قوله- والتي لا تزال حتى يومنا هذا. وقال الدبلوماسي الهندي هارديب، إنّ الدعم اللوجستي والمخابراتي والدعم العسكري الأمريكي والبريطاني للسعوديين، جنباً إلى جنب مع دول الخليج، حوّل الحرب الأهلية اليمنية إلى صراع دولي ممتد، مضيفاً أنه على الرغم من أن مصلحة الولايات المتحدة «الأولية» في اليمن كانت محاربة تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية. لكن المفارقة العجيبة أنّ الولايات المتحدة ألزمت نفسها بمحاربة الحوثيين على الرغم من أنّها مجموعة تعتبر قادرة على محاربة القاعدة وداعش. وأشار إلى أنّ التدخل غير المدروس الذي تجاهل

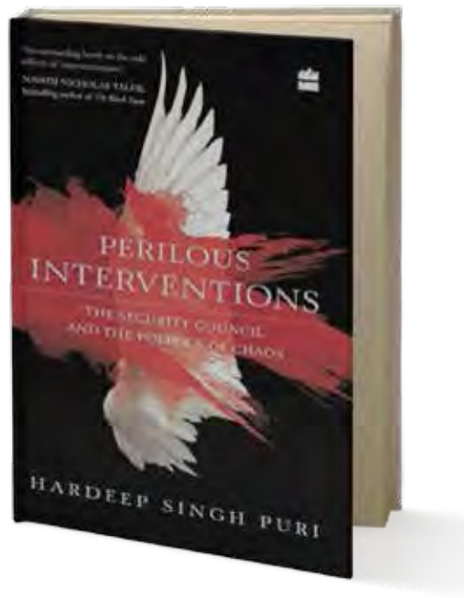

النظام القضائي في اليمن فضلاً عن المجتمع الدولي لم يواجه أي إدانة صريحة من قبل مجلس الأمن للأمم المتحدة - وهي الهيئة الدولية المسؤولة عن ضمان السلام والأمن العالميين .نبه الكاتب إلى أن جمال بن عمر، المبعوث السابق للأمين العام للأمم المتحدة الخاص إلى اليمن، كان على مشارف حل سلمي تفاوضي بين الأطراف المتحاربة في مارس ٢٠١٥، لكن الإعاقة المنتظمة والتدخل والإجبار من قوى خارجية التي مورست ضده، جعلته يستقيل بعد شهر من تدخل السعوديين عسكرياً في اليمن. مؤكداً أنّ الأمم المتحدة لعبت دور «المتفرج الصامت» في حين سلح السعوديون مختلف الجماعات المناهضة للحوثيين وحلفاءهم، وبالتالي تكرار الأخطاء التي ارتكبها الغرب في ليبيا وسوريا. ولكن هذه المرة، قوة إقليمية، وليس قوة خارجية غربية.

يحلل الكاتب توازنات القوى داخل المجلس، فيرى أنّ واشنطن لا تزال الفاعل رغم تراجع بعض وزنها الاستراتيجي، ومن المتوقع أن تواصل الصين صعودها الحاد، فيما تعاني روسيا من التوترات نتيجة سياستها الحازمة وضعف قاعدتها الاقتصادية، كما أنّ القوى الأوروبية تتجه نحو اضطرابات سياسية داخلية ناجمة عن المخاوف من تدفق اللاجئين مما يضاعف من حالة الركود الاقتصادي، وقد تحتاج الهند لتقديم تنازلات من أجل تحسين قدرتها على الوصول إلى مجلس الأمن، على الأرجح محاولة إيجاد صيغة تضمن لها الوجود لفترات أطول كعضو حالي مع الوضع في الاعتبار هدف الحصول على مقعد دائم بالمجلس.

كتب مقدمة كتاب «تدخلات محفوفة بالمخاطر- مجلس الأمن وسياسة الفوضى)، دبلوماسي مخضرم آخر هو: عمرو موسى؛ مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة عام ١٩٩٠، ووزير خارجيتها عام ١٩٩١، وأمين عام الجامعة العربية عام ٢٠٠١، تحت عنوان «إصلاح الأمم المتحدة لم يعد خيارا» .وإذ يؤكد «موسى» أن إصلاح الأمم المتحدة أصبح حتميّة لا فكاك منها، وأن هذا التغيير شرط أساسي لاستدامة النظام العالمي، ويشير أيضًا إلى التوصيات المتعلقة بتضييق الفجوة بين ما تتوقع المنظمة إنجازه وما تنجزه بالفعل على الأرض، فإنه في الوقت ذاته يؤكد على أن الإصلاح الحقيقي للأمم المتحدة هو في جوهره مسألة سياسية، تتطلب رؤية وجرأة، ناصحًا بأن يكون إصلاح مجلس الأمن الدولي على رأس أولويات هذه الأجندة الإصلاحية.

إن إصلاح المنظمة الدولية أمر ملح لاستقرار العالم، وحفظ توازن القوى، فحينما يخطئ طبيب في تشخيص المرض، ووصف الدواء؛ يكون هناك في الغالب علاج لهذا الخطأ، أو على الأقل طالما بقي المريض على قيد الحياة. وحتى لو فاضت روح المريض إلى بارئها؛ تظل الفرصة سانحة لمقاضاة الطبيب المخطئ بيدَ أن قضايا السلم والأمن الدولية تشكل معضلة من طراز مختلف تماما؛ ذلك أن تداعيات هذا النوع من الأخطاء ذات طبيعة أكثر خطورة واستمرارية، والمسؤولون عن هذه القرارات غالبا ما يتسترون وراء شعار «المسؤولية الجماعية» وينتهي الأمر بخراب مدمر وشعوب مشردة، ودول أكثر فقرا واحتياجا.

Perilous Interventions:
The Security Council and the Politics of Chaos- harper Collins-India-September 2016 ,13

عنوان الكتاب: تدخلات محفوفة بالمخاطر: مجلس الأمن وسياسة الفوضى

المؤلف: هارديب سينغ بوري

الناشر: هاربر كولنز المحدودة للنشر- الهند: ٢٠١٦

اللغة: الإنجليزية

* كاتبة وباحثة مصرية

تشريح الهندسة المعمارية (الكتب السبعة عن المنطق والشكل والمعنى) .. لسيرغي كافتارادزي

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

«روح المكان» - هاتان الكلمتان المجتمعتان بشكل سحري هما مفتاح العبور إلى عالم الهندسة المعمارية. العالم المليء بالخطوط والزوايا، بالضوء والظل، الذي تكتنفه الأسرار وتجدل خيوطه المعقدة والمشتبكة بالتاريخ والأسطورة. أما كشف أسرار المعمار فيتأتى بالملاحظة لا بالمصارحة. يستشفها الناظر عفويا بمحض القلب والخاطر. فهب أنك، أيها السائح في المدينة، قد أخذتك الدروب إلى جادة المعمار، قادتك تحت أقواسه وأدخلتك أروقته واجتازت بك حذو جنبات أفانينه، إلا أنك، ومع ذلك، لن تحظى من جولتك بشيء إن لم تصغ إلى المكان وتتملك روحه حواسك. لن ترى شيئا إن لم تصغ إلى الأصوات المنبعثة من حفيف الأشجار وضوضاء المطر، الأصوات القادمة من شجو الطيور ومن رنين لهجة السكان المحليين. فإن أصبت من كل ذلك، حينها فقط ستبزغ فيك روح المكان، ومن ذرات ضوئه، سترتسم أمامك علاماته وسماته الكثيرة، وهكذا، شيئا فشيئا، حتى ينكشف لك المعمار بكامل رونقه وفنه، وستمدك زواياه المفاجئة بالمزيد والمزيد من الانطباعات الجديدة التي سترافقك لحين خروجك من المدينة.

مؤلف كتاب «تشريح الهندسة المعمارية» سيرغي كافتارادزي ناقد فني روسي ومؤرخ معماري، عمل لسنوات طويلة في الأكاديمية الروسية للمعمار وعلوم البناء ووضع منهجه الخاص لتعليم قراءة الهندسة المعمارية وكيفية فهمها كأحد أهم فروع الفن. وعلى المنهج ذاته يبني كافتارادزي أفكاره في هذا الكتاب ويبين عن مقدرة في إيقاد اللذة في نفس القارئ تجاه الجميل والسحري.

لسنا هنا - بطبيعة الحال - إزاء كتاب فريد أو بحث سبّاق يتناول الفن المعماري: يستنبط فرضياته ويناقش أفكاره ويجادل في نظرياته، فالمعمار بابه واسع وقد دلفه الكثيرون عبر الأزمنة ودبجوا فيه أعمالا بديعة، بدءا من الروماني البارز ماركو فيتروفيوس الذي كتب عن المعمار واستيعاب الإنسان له، مرورا بمؤلفات عصر النهضة الأوروبية حيث كوكبة العلماء الذين أبدعوا في هذا المجال، يتقدمهم ليوناردو دا فينشي ومن بعده أندريا بالاديو، جورجو فازاري، وانتهاء بالبحوث النظرية الخصبة في القرن العشرين ومن أعلامه برونو تسفي، إروين بانوفسكي وغيرهم من العلماء والفنانين.

ومع ذلك، وخلافا لمعظم الكتابات النظرية والبحوث العلمية التي أجريت على الفن المعماري، حيث بالكاد نجد بينها كتابا لغير المختصين به أو الخبراء بأدواته أو المنخرطين في دراسته؛ وهؤلاء أشخاص لا تعيقهم لغة البحث العلمية ولا تنغلق على أفهامهم مصطلحات ومقاربات الهندسة المعمارية، بخلاف ذلك يقدم سيرغي كافتارادزي لقارئه شرحا مسهلا ومحايثا للإدراك العام. ومن خلال لغة هادئة يقوده إلى فضاء المعمار المسوّر ويُسمعه اللحن الكامن في أحجاره.

حمل المؤلف على عاتقه الجمع بين متناقضين: الأغراض التقنية في الهندسة المعمارية من جهة والنواحي الفنية للعمارة من جهة أخرى. فالعمارة التي عرفها الإنسان واعترف بها تمتلك جوهرين متلازمين، وإن كانا متنافرين بطبيعتهما: الجوهر المادي الذي يؤمن الجانب الوظيفي للبناء والجوهر الجمالي الذي يفضي إلى الشكل الفني. وحين اختار المؤلف كلمة «تشريح» لعنونة كتابه فقد عنى بذلك: تشريح الكتلة الصلدة لمجسم البناء، سواء كان البناء ينتمي إلى العمارة الأوروبية أو الإسلامية أو يخص أبنية الشنتو اليابانية، من أجل استخراج المعنى الجمالي من بين أحجاره المتراصة. المعنى الذي يحمل الوزن والشكل معا.

وإذا كانت لغة المعمار شيقة فذلك لأنها تنطوي على مهمة شاقة، وهي تشبه الأعمدة الحجرية التي تربط بين الأقواس لتصنع منظرا فنيا أخاذا، ولكن، وفي نفس الوقت، لتحمل أطنان الحجر التي تشكل البناء. يقول كفتارادزي عن كتابه: «لقد أخذت على عاتقي في هذا العمل، وبقدر ما تبقى لي من مقدرات، فتح عالم المعمار لكل من بوسعه التلذذ بالجمال الذي يكتنفه ولكن لم يقيض له ذلك. أريد أن أسمع القارئ لغة المعمار الجميلة التي لم يسمعها من قبل».

عمد المؤلف إلى تسمية فصول كتابه بالطريقة الكلاسيكية في العنونة، فقسمه إلى كتب، كل منها يحمل عنوانه الخاص، وجاءت على النحو التالي: الكتاب الأول ويحكي عن بداية الهندسة في التعبير عن نفسها: القوس، والسقف، والقبة. الكتاب الثاني عن كيفية بناء الأسقف المتينة من الأحجار الصغيرة: الوزن، والمساحة وغيرهما من مفاهيم الشكل. الكتاب الثالث عن المشاعر التي يوقظها المعمار: حبكة المعمار. الكتاب الرابع عن المعمار باعتباره مرآة لنظام العالم: المعبد، والمدينة، والمدينة السماوية. الكتاب الخامس عن العمارة الدينية: لغات الهندسة المعمارية الغربية. الكتاب السادس عن حكمة الشرق والمقدرة على فهمها: العصور والأساليب. الكتاب السابع عن تسلسل التيارات الفنية ومنطقها.

لعلة تعود إلى تعقيد المعمار والغموض الذي ما انفك يرتبط به ويوصد الأبواب للوصول إلى فهمه، يفكك سيرغي كافتارادزي المعمار ويعيد تعريفه وبسط مفاهيمه بطريقة لا تخلو من نزوع تعليمي وتربوي. فاللوحة الفنية لا تحتاج إلى وسيط أو مُرشد للتمتع بجمالها، وبجمالها الخارجي بأقل تقدير، أما الفن المعماري فدون فهمه الكثير من الجدران والزوايا ومساحات الظل والفراغ. يقول كافتارادزي في هذا السياق: «إن المعمار، مقارنة بالفنون الأخرى، يفتقر إلى التسلية، وليس به العناصر البرّاقة، كما لا يمنح الثمار اللذيذة كالتي تمنحها اللوحة؛ مع ذلك يبقى المعمار فنا سرديا بامتياز، مكتنز بالقصص والحكايات، حبكته منفتحة على الأفق الواسع ومرتبطة بالكون وانسجامه».

يعرض كافتارادزي المعمار بصورة تتعالق مع التجربة الإنسانية وتجعله قريبا من الفهم. أما تاريخ المعمار فيعرضه على هيئة سلسلة من الإنجازات الثقافية،

حيث تتضافر الجهود وتتهيأ الظروف لبلورتها وذلك على امتداد الحضارة البشرية. فظهور نسق معماري ما، شرقيا كان أم غربيا، واستتبابه فوق أرض الحضارة، وامتداده في زمانها، إنما هو ظهور عظيم وثورة روحية ثقافية كبرى.

علاوة على كل ما سبق، يَعتبر مؤلف الكتاب أن فهم المعمار لا يقتصر على التذوق الجمالي وحده، إذ ثمة مزالق خطرة أمام كل باحث في الهندسة المعمارية، التي يصفها كافتارادزي بالفن الأكثر تأثيرا بين الفنون قاطبة. فالوقوع ضحية لتلاعب الوعي يُعدّ أمرا واردا لمن يتعاطى مع المعمار ويدخل غمار أفكاره... وأحجاره. إن المعماري الذي وضع هيكل البناء وابتكر هندسته إنما وضع وابتكر ذلك من وحي المخيلة وبإيحاء ربة الفن. وإننا، نحن الذين نستفيد من العمارة ونكيّف حياتنا بموجبها إنما نفعل ذلك بالكيفية التي رسمها لنا المعماري، وبالشكل والإيقاع اللذين أرادهما لنا. ليس هذا وحسب، فالمعماري يسيطر على أفكارنا ومشاعرنا. ولبرهنة هذه الاستنتاجات يأتي سيرغي كافتارادزي بأمثلة عن المباني الدينية التي تغمرنا بمشاعر خاصة حينما نقع في مجالها، كما أن مباني الأنظمة الشمولية تمنح انطباعات تختلف عن مباني الأنظمة الديموقراطية.

بوجهة نظر فلسفية، يقوم المؤلف بتفكيك مجموعة من التحف المعمارية (ولا سيما المعابد) ويعيد بناءها بهيئة كونٍ مصغر محمي من القوى العليا. وتحظى القباب بجانب وفير من اهتمامه، فالقبة التي تتوسط المبنى من الداخل وتغطي عنه السماء إنما مهمتها أن تكون في موقع السماء. إنها مسألة إلغاء وتمثّل في الوقت نفسه، مسألة حجب وظهور. يكتب المؤلف عن القبة: «إن القبة هي الشكل الأتم كمالا والأكثر عقلانية (الحجم الأكبر في أقل مساحة) وهي الأكثر ديموقراطية (كل جزءية فيها تبتعد عن المركز بمسافة متساوية). لذلك لا غنى عن القبة في الأبنية التي تمثل الكمال الاجتماعي وفي مقدمتها دور العبادة، وفي البرلمانات ومجالس الدول حيث تصاغ القوانين، وفي دور القضاء حيث تسكن العدالة».

يحتل النمط المعماري المسمى بالنمط الستاليني مكانا ملحوظا في الكتاب، وهو أسلوب معماري يعود أصله إلى العمارة اليونانية القديمة، وقد شاع في فترة حكم الزعيم السوفيتي جوزيف ستالين، حيث توزعت شواهده في العديد من المباني السيادية للدولة السوفيتية. وليس

من قبيل المصادفة أن يتم استعارة أساليب معمارية من الزمن اليوناني، فهي استعارة تنطوي على قوة الدولة وعظمة رجالها وسعة علومها ورسوخ حكمتها. يقول المؤلف في هذا السياق: «لا شك في أن الستالينية صفحة تراجيدية من تاريخنا، ولكن بفضلها استطعنا أن نتعرف على أدق تفاصيل الفن اليوناني والروماني القديمين من دون حاجة إلى السفر خارج البلاد. نجد نماذجها الرائعة ليس في العاصمة وحدها، وإنما كذلك في المدن والقرى الريفية».

بالإيضاحات والرسومات، أدرج الباحث في كتابه مجموعة من المشاريع المعمارية التي لم ترَ الضوء بشكل نهائي، إذ تم إلغاؤها وهي في الأطوار الأولى من بنائها. وبرأي المؤلف فقد مثلت تصاميمها جرأة تاريخية وثورة عظمى في فن الهندسة المعمارية. في طليعة تلك المشاريع الطموحة ما كان مزمعا القيام به في برلين النازية، حيث كان من المخطط أن يُشرع في بناء قصر الشعب، وهو مجمع سكني هائل يُجسد فكرة اليوتوبيا الاجتماعية (أو المدينة الفاضلة) بقبة يبلغ قطرها مئتين وخمسين مترا ويتسع لمئة وخمسين ألف مواطن. وفي موسكو الشيوعية تم تفكيك كنيسة المسيح المخلّص وسط العاصمة لإقامة قصر السوفييت في مكانها. ومن البيانات الواردة في الكتاب تتضح ضخامة المشروع حيث يصل طوله إلى أربعمائة متر، يتربع فوقه تمثال ضخم للزعيم البلشفي فلاديمير لينين بطول سبعين مترا، يمد يده إلى الأمام مشيرا للشعب على الطريق الذي يجب أن يسير عليه.

إلى جانب ما يستنبطه كتاب «تشريح الهندسة المعمارية» من وشائج بين الفن المعماري والأفكار الفلسفية، يسرد لنا كذلك علاقته الطبيعية بالأحداث التاريخية كالحروب والمحارق والاغتيالات. من ذلك ما ورد عن الطابع الإبداعي لفنان عصر النهضة ميكيلانجيلو الذي شارك في الدفاع عن دوقية فلورنسا وشهد هزيمتها عام ١٥٣٢، الأمر الذي أضفى مسحة بليغة من الكآبة على أعماله العظيمة.

من خلال كتابه هذا، وبلغة سهلة لا يعتورها الفتور الإنشائي، تمكن الناقد والمؤرخ الروسي سيرغي كافتارادزي من استعراض الفن المعماري: تاريخه وبنيته الجمالية وطبيعته الوظيفية. وقد انطلق في تأليفه من قاعدة مفادها أنّ المنهجيّة العلمية الصرف في التعاطي مع الفن المعماري ستقلص من عدد القراء مرتين بأقل تقدير. وبالرغم من أنّه لم يفلح في تجنّب المصطلحات الهندسية بالمطلق، إلا أنّه نجح في رفد كتابه بلغة يتذوّقها القراء الجدد والطارئون على هذا النوع من الفنون. يقول واصفا طريقته في تأليف الكتاب: «لا المعمار فنا بصريا وحسب، ويجب أن تتجاوز علاقتنا به حدود العين لتصل إلى اليد. علينا لمسه. يجب أن نشعر بدفء الحجر الجيري المُسَخن بشمس الأدرياتيك. لن نفهم المعمار إن لم نشعر ببرودة الغرانيت في سانت بطرسبورغ وبخشونة الجص الصدفي. ولن نفهمه إن لم نجعله كائنا قريبا منا، يملأ راحة أيدينا ويتحرك فيها. فلنستمع إلى الرنين القادم من أحجار السلالم الكبيرة الفاخرة أو في المداخل السرية الضيقة وسنجده مختلفا بعضه عن بعض. فلنصغ إليه ونحن نهبط الدرج إلى الحانوت في الأسفل أو ونحن نصعد إلى أبراج المعارك الملتهبة، سنجد اللغة مختلفة».

الكتاب: تشريح الهندسة المعمارية (الكتب السبعة عن المنطق والشكل والمعنى).
المؤلف: سيرغي كافتارادزي.
الناشر: المدرسة العليا للاقتصاد، موسكو ٢٠١٦ .
اللغة: الروسية.
عدد الصفحات: ٤٧٢

***أكاديمية ومستعربة روسية**

حاليـــاً في الأســـواق

مجلة التفاهم

عنوان العـــدد: الإســـلام :الفكرة والدعوة والبلاغ

افتتاحية العدد: الفكرة والدعوة والبلاغ: عبد الرحمن السالمي.

المحـــــور

- صحيفة المدينة : الدعوة والبلاغ والمواطنة: عبدالله بن بية.
- الرؤية القرآنية لدعوات الرسل وشمولية الرسالة: عبدالرحمن حللي.
- مفاهيم الأمانة في القرآن والسنة وأعمال المفسرين: محسن العوني.
- الفكرة والدعوة والفقة والدولة في الازمنة الوسطية، إطار إجمالي للرؤية: نور الدين الخادمي.
- انتشار الإسلام في الرؤى الاستشراقية، توماس آرنولد أنموذجا: أحمد الزعبي.
- السلطة والشرعية وحكم القانون: النموذج الروماني : فايز حسين محمد.
- أزمة الشرعية في التجربة التاريخية الإسلامية: صلاح الدين الجورشي.
- رجال الدين امام السلطة السياسية: نصائح الملوك الإسلامية ومرايا الأفراد : عز الدين العلام.
- الدولة المستوردة والدولة المستحيلة: قراءة في كتابي بادي وحلاق: محمد الشيخ.
- استعادة السكينة في الدين وسلامة الإنسان والعمران: رضوان السيد.

* فهارس المجلة من العدد ١ إلى العدد ٥٠

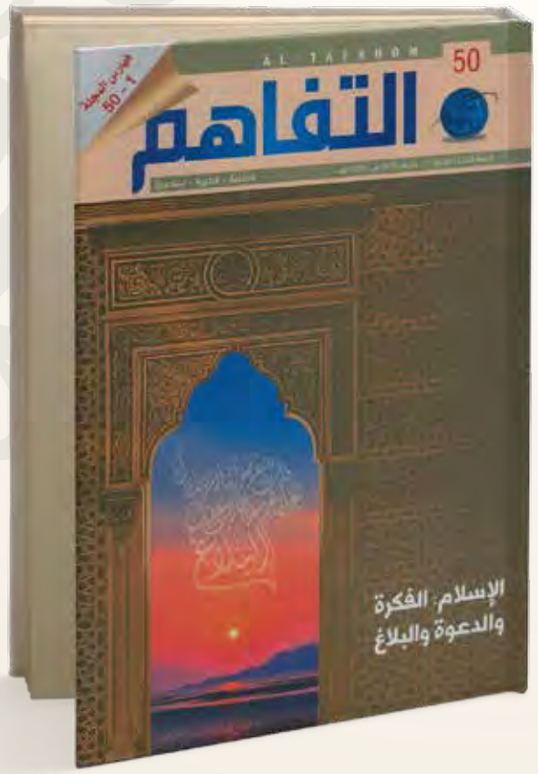

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ - ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+

البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net